



مُذَكَّرَاتُ أَحْمَدَ بْنِ بِلَّةَ

دَارُ الْآدَابِ

مُذَكِّرَاتُ أَحْمَدَ بْنِ بِلَّةَ

كما أملاها على روبر ميرل

ترجمة العفيف الاخضر

مَنْشُورَات دَارِ الْآدَاب - بَيْرُوت

تمهيد الفاضل

في الرابع من تسوز ١٩٧٩ ، أفرج عن الرئيس أحمد بن بلة ، بعد أن قضى أربعة عشر عاما في السجن من غير محاكمة ، وقد تم الافراج عنه بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لاستقلال الجزائر بعد بضعة أشهر من وفاة الرئيس الراحل هواري بومدين .



ولد أحمد بن بلة في بلدة مارنيا القريبة من الحدود المغربية عام ١٩١٦ من أبوين فلاحين ، وتلقى تعليمه الاول في مدارس تلمسان الغنية بتراتها وتقاليدها العربية . وبعد أن بلغ الخامسة عشرة من عمره انخرط مع عدد من رفاقه في حزب الشعب الجزائري الذي كان يقوده مصالي الحاج ، وتحول بعد سنوات قليلة الى قطب رئيسي فيه ، وبعد خلاف مع مصالي الحاج حول ضرورة البدء بالكفاح المسلح ، قاد بن بلة مع تسعة من رفاقه انشقاقا داخل حزب الشعب ، وشكلوا حزب الوحدة والعمل . وهؤلاء التسعة هم الذين اتخذوا القرار التاريخي ببدء الكفاح المسلح في شهر تشرين الثاني ١٩٥٤ .

وقد برزت زعامة بن بلة للسرة الأولى عام ١٩٤٩ ، وخاصة بعد حادث وهران الذي كان عبارة عن هجوم مسلح نظمه بن بلة مع بعض رفاقه للسطو على الأموال المودعة في مركز البريد بالمدينة ، وذلك من أجل تسويل النشاط العسكري للمنظمة ، ولكن سلطات الاحتلال الفرنسي كشفت بعض خلايا المنظمة ، وألقت القبض على بن بلة وبعض رفاقه بعد حادثة البريد وأدخلته السجن للسرة الأولى في بلدية القرية من العاصمة ، وهو السجن ذاته الذي سيدخله فيما بعد ، ولكنه ما لبث أن هرب من السجن عام ١٩٥٢ ، وهو عام الثورة الناصرية ، واتجه صوب القاهرة .

وفي القاهرة عبد الناصر ، تم وضع اللسان الأخيرة لثورة الاول من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٤ الشعبية المسلحة في الجزائر . وحين قرأ بن بلة البيان الاول للثورة أدرك الفرنسيون من هو عدوهم الحقيقي . وفي عام ١٩٥٦ تعرضت مصر للعدوان الثلاثي ، ولم تكن فرنسا تخفي ان أحد أسباب اشتراكها في العدوان لم يكن فقط اقدام عبد الناصر على تأميم القتال ، بل أيضا الدعم الذي قدمته القاهرة للثورة الجزائرية . وفي ٢٢ أكتوبر من العام نفسه دخل بن بلة السجن للمرة الثانية حين أرغمت المقاتلات الفرنسية طائرة مغربية كانت تقله مع ثلاثة زعماء آخرين (بوضياف ، آيت أحمد ، وخيضر) على الهبوط . وتنقل بن بلة من سجن الجزائر العاصمة الى سجن « الصحة » الى سجن جزيرة «ايكس» الى سجن « توركان » ، واستتر في سجون فرنسا أكثر من ست سنوات حتى استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ حين أطلق سراحه اثر توقيع اتفاقية ايفيان . وبدلاً من أن تحجبه هذه الفترة الطويلة عن ساحة النضال ، كانت تحوله الى أسطورة شعبية عرفت باسم « عيميد » وهو اسمه الحركي .

ودخل بن بلة معترك السياسة من أوسع أبوابه . فبعد الأحداث المؤسفة التي جرت بين الحكومة الجزائرية المؤقتة التي كان يرئسها يوسف بن خده في ذلك الحين وبين قيادة جيش التحرير ، تمت الغلبة لفريق بن بلة . وفي العاشر من أيلول ١٩٦٢ دخلت دبابات العقيد هواري بومدين الى العاصمة لتؤمن النصر النهائي لبن بلة على سائر الاطراف . وبعد ذلك بحوالي العام ، أي في ٨ أيلول ١٩٦٣ ، انتخب بن بلة رئيسا لأول جمهورية جزائرية مستقلة بأغلبية ستة ملايين صوت .

وفي الفترة القصيرة التي قضاها على رأس السلطة ، جابه مجموعة لامتناهية من المشاكل المتراكمة منذ سنوات الاحتلال . فقد كانت الادارة معطلة ، والاقتصاد مشلولاً ، والمدارس شبه مغلقة ، اذ ان الفرنسيين انسحبوا بشكل جماعي بعد الاستقلال وسحبوا معهم جميع ملاكاتهم ، تاركين البلاد تفلح شوكتها بأظافرها .

وقد ظل بن بلة رئيسا للجمهورية مدة ثلاثة أعوام . وفي يوم ١٩ حزيران ١٩٦٥ قرع باب الشقة المتواضعة التي كان يسكنها ، وكانت تعتبر مقرا للمكتب السياسي لجهة التحرير الوطني الجزائرية ، وعندما سأل من الطارق ، أجابه هواري بومدين : « افتح يا سي أحمد » .

وظل بن بلة منذ ذلك التاريخ في المعتقل ، تحت الإقامة الجبرية ، حتى أطلق سراحه في الرابع من تموز ١٩٧٩ .

وقد أثار اعتقاله في ذلك الوقت ضجة عالمية كبيرة . فعلى الصعيد العربي تدخل الرئيس عبد الناصر شخصيا لدى بومدين اذ أرسل وفدا برئاسة عبد الحكيم عامر للسطابة بالافراج عنه ، لكن هواري بومدين رفض الطلب الذي تكرر فيما بعد اثنتي عشرة مرة . وتقول مادالين

فيرون محامية بن بلة ان عبد الناصر شكل فريقا مسلحا للافراج عنه ،
الا ان أمره اكتشف في الساعات الاخيرة قبل بدء العملية .

وبعد ذلك تدخل فيدل كاسترو ، وسيكوتوري ، وديغول الذي
طلب الى بومدين شخصيا عدم القيام بتصفية بن بلة ، ثم تدخل نيريري
وموديوكيتا الذي طلب الى وزير خارجيته أن يشير قضية اعتقال بن بلة
في مؤتمر وزراء خارجية منظمة الوحدة الافريقية الذي عقد في اكرام
عام ١٩٦٧ ، لكن عبد العزيز بوتفليقة طلب سحب الموضوع وتمهد كتابة
بتسكين أول رئيس افريقي يزور الجزائر من مقابلة بن بلة .

ويقال ان كاسترو قد طلب ذلك في أول زيارة له للعاصمة الجزائرية
لكن طلبه قوبل بالرفض .

وظل طلب الافراج عن بن بلة أمل كل القوى التقدمية العربية
والعالمية ، ولم تنفع الكثير من الحملات العالمية التي قادتها صديقتيه
ومحاميته (فيرون) بساندة العديد من الشخصيات الديمقراطية باقناع
الرئيس بومدين باطلاق سراحه .

وفي انتظار الحرية أو الموت عاش بن بلة في سجنه . وتقول محاميته
انه أمضى الثمانية عشر شهرا الأولى من اعتقاله ينام ببزته العسكرية لأنه
كان يتوقع الاعدام بين لحظة وأخرى . وبعد خمس سنوات من اعتقاله
تلقى لأول مرة زيارة أمه بصرية مطلقة . ثم انتظمت هذه الزيارة حتى
أصبحت دورية كل شهرين .

في سنة ١٩٧١ عرضت الأم على ابنها السجن مشروع الزواج .
ويقال ان بن بلة ضحك طويلا وقال لها : أنت تحلمين ، هل هناك من
تقبل بالسجن اراديا ؟

ولكن الجزائر الثورة لم تبخل على ابنها وقائدها بمن ترافقه وتشاطره لحظات وحدته وألمه . وكانت تلك الرفيقة هي زهرة سلا ابنة وزير الاقتصاد السابق في حكومته ، وهي صحافية مناضلة في جبهة التحرير الجزائرية .

وتم الزواج في العام ١٩٧١ بعد ست سنوات من تاريخ اعتقاله .

وبعد خمسة أشهر من زواجه توفيت والدته باحتقان رئوي ، وكان السجين ما يزال سجيناً .

منذ سنتين صرحت محاميته للعديد من الصحف العالمية ، بأن هناك مؤامرة لتصفية بن بلة بعد أن سرب بعض أقطاب الحكومة الجزائرية نبأ عن ذلك الى الاوساط الرسمية الفرنسية . وعلى اثر ذلك شكلت لجنة عالمية للدفاع عنه برئاسة شفا ركس الحائز على جائزة نوبل . وعلى اثر هذه الحملة سمح للرئيس بن بلة باستقبال أصدقائه وبعض أفراد عائلته ، وكان يعيش تحت الإقامة الجبرية والحراسة المشددة ، قريبا من مدينة البليدة على بعد ٤٠ كلم من العاصمة الجزائرية .

الذين زاروا بن بلة في الأشهر الأخيرة يقولون ان الرئيس الجزائري الاسبق كان لا ينقطع عن المطالعة أبدا ، وقد قرأ كثيرا أثناء فترة سجنه ، وتابع باهتمام من خلال الراديو والصحف أنباء الثورة الإيرانية .

*

ويسر « دار الآداب » التي أصدرت الطبعة الاولى من مذكرات بن بلة منذ اعتقال الزعيم الجزائري ، أن تعيد اليوم نشر هذه المذكرات بعد اطلاق سراحه .

*

هذه المذكرات ، التي نضعها بين يدي القارئ العربي ، تتوهج
- عكسا لكل المذكرات السياسية - بحرارة انسانية ، وبتلقائية شفافة
تدخل القلب بغير استئذان ، وبالصدق والدقة في قص وقائع التاريخ ،
وبالحب العارم للانسان العربي . انها تكشف بأصالة عن بن بلة المتمرد
منذ صباه على الكذب والمهانة ، وعن بن بلة الثائر الذي لا يهن ولا ينهزم
في النضال ضد غربة الانسان في وطنه ، وجوعه وسط خيرات بلاده ،
وعن بن بلة المحرض والمنظم الثوري الذي مرسته تجربة الحرب العالمية
الثانية على القيادة والصبر وعلمته الاصرار وعدم التراجع أمام الخطر ،
وأخيرا عن بن بلة الانسان الذي مزقت وجدانه مأساة جماهير الشعب
الجزائري التي كانت تحت نظام الاحتلال والاستغلال تجلد في اليوم
بألف سوط ، وتداس في اليوم بألف قدم . فهب لقيادة نضالها غير هياب
وضحى في سبيلها حتى النهاية غير ضنين . ومن أجل ذلك كان أملها
الثوري في ميلاد عالم أفضل .

الناشر

محامية بن بلة تتكلم ...

المحامية الفرنسية ، مادلين لافي فيرون ، عرفت الرئيس الجزائري السابق أحمد بن بلة عن قرب .. وكذلك عن بعد .. في ثلاث مراحل أساسية :

المرحلة الاولى ، منذ ٢٢ سنة ، وبالتحديد في عام ١٩٥٧ ، عندما كان نزيل سجن « لاسانتي » الشهير في باريس .

والمرحلة الثانية ، بعد استقلال الجزائر ، والافراج عن قادة الثورة الجزائرية . وكانت تراه « خفيف الظل وقريبا للقلب ببساطته وورزاقته » .

والمرحلة الثالثة تأتي بعد انقلاب ١٩٦٥ ، وغياب أحمد بن بلة عن الساحة السياسية . حتى اليوم والمحامية تتبع احواله والظروف المحيطة به . وخلال السنوات الماضية بذلت جهودا كبيرة سعيا لاطلاق سراحه . وعبثا ضاعت جهودها كما ضاعت جهود عظماء ورؤساء دول . فقد كان الصوت الرسمي يأتي دائما : « انسوا بن بلة » .

ثم لجأت بعد ذلك للرأي العام الدولي . فجمعت مئات وآلاف من التواقيع التي كانت تعالّب بالافراج عن بن بلة ، كما طالبت الهيئات الدولية والمؤسسات العمومية بهذا في مناسبات مختلفة .

قالت مادلين لافي فيرون في لقاء معها :

— في عام ١٩٥٧ كان لي اللقاء الاول مع السيد أحمد بن بلة في سجن « لاسانتي » بباريس ، بعد أن رشعني مع بعض المساجين الجزائريين للدفاع عن حقوقهم وقضيتهم .

استقبلني بحرارة . وكان حذرا في علاقته معي . ولم استطع ان اكسب صداقته الا بعد مدة طويلة من الزمن . لانني كنت فرنسية . وكان انطباعي الاول عن شخصيته بأنه رزين ومتزن وبسيط وعلاقاته مع الآخرين مباشرة . وكان واضحا انه اقوى شخصية بين رفاقه . وكان خفيف المظهر وقريبا للقلب .

وتفتح مادلين ملف احمد ، عندما كان سجيننا ، ويشير الى صوره وتقول :

— سجن « لاسانتي » من اقصى السجون الفرنسية . فلكل سجين زنزانة . واللقاء يتم في قاعة كبيرة مع المساجين في وقت محدد من كل يوم . . . في ايام رمضان ، كانوا يفضلون طهي طعامهم بأنفسهم . فحصلت لهم على بعض الادوات البسيطة لطهي بعض الاشياء الخفيفة . وكان محمد خيضر (الذي اغتيل بمدريد) يجيد طهي « الشوربا » وبعض المأكولات الجزائرية .

اما بن بلة فكان يحب النقاش والرياضة ، وبهوى لعبة كرة اليد ، وكثيرا ما كان يلعبها مع رفاقه . . . ويحب كثيرا لبس الاحذية الرياضية الخفيفة .

وكانت له علاقات انسانية طيبة مع المساجين الآخرين . كان عاديا وبسيطا جدا ، وهو انسان مؤمن ، كثيرا ما رايتَه يصلي . ولكنه ليس ذا قناعات ميتافيزيقية بل يؤمن بالاشتراكية . وكان مهتما كثيرا بالتهج الماركسي كنظرية للتحليل الاجتماعي .

وتمضي المحامية الفرنسية في ذكرياتها :

— في احد ايام عام ١٩٦٠ في لقاء مع بن بلة وخيضر وآيت احمد والاشرف ، بدا النقاش عند الظهر وامتد حتى وقت متأخر من الليل . وكان محور تلك الحوارات الثورة الجزائرية وعلاقاتها بمصر الناصرية والبلاد العربية الاخرى ، كالمغرب وتونس والسعودية .

وكان راي بن بلة ان الحركة الثورية في العالم الثالث وحدة يجب ان تتكامل وان تحارب فكرة الاقليمية . ولاحظت ان الاشرف كان قليل الحديث في تلك اللقاءات . ولكني لم الاحظ في تلك الفترة اي اختلاف سياسي بينهم . وكانوا حتى على مستوى علاقاتهم كأشخاص منسجمين .

— وما هي ذكرياتك عن بن بلة ، بعد السجن الفرنسي ؟

ـ عرفت بالخصوص بن بلة في فترة حكمه . لم يتغير أي شيء في علاقاته مع الآخرين . في عام ١٩٦٣ حضرت الى الجزائر ، والتقيته عدة مرات ، وكان رائعا في حوارهِ مع اطفالهِ . فقد خصص من وقته الثمين ما يكفي لحدثهم عن الثورة الجزائرية وتاريخ الشعب الجزائري الذي عرف ابشع ظروف الاستعمار .

وتكشف المحامية الفرنسية النقاب عن لقاء سري بين بن بلة والرئيس الفرنسي الراحل ديغول . فقد بادر بن بلة في عام ١٩٦٤ لزيارة باريس بصفة سرية لمدة ثلاث ساعات واجتمع بالجنرال ديغول في قصر البساتين .

وقال لي بن بلة انه ناقش مع الجنرال ديغول العلاقات الثنائية والمصالح المشتركة بين البلدين . وقد طرح عليه الرئيس الفرنسي عدة اسئلة بخصوص جمال عبد الناصر واحمد سيكو توري وبعض قادة العالم الثالث الذين كانوا اصدقاء للثورة الجزائرية . وكانت نتائج ذلك اللقاء جيدة بالنسبة للطرفين .

وتمضي مادلين في حديثها :

ـ بن بلة كان تجربة فريدة في العالم الثالث ، فهو الوحيد الذي كان يؤمن في قارة افريقيا واماكن أخرى بأن وحدة الحركة الثورية هي مسؤولة عن جميع المظلهدين . ولهذا عرض على شخصيات عربية مناصب وزارية مهمة ، فيهم من قبلها ، وفيهم من احتفظ بمناصب استشارية مهمة . كما عرض على الثائر في اميركا اللاتينية تشي غيفارا الاشراف على الاقتصاد الجزائري ، بعد استقالته من الوزارة في كوبا .

ـ واين رايت بن بلة للمرة الاخيرة ؟

ـ في شهر نيسان (ابريل) من عام ١٩٦٥ مع الرئيس احمد سيكو توري ، الذي كان في زيارة رسمية للجزائر . وبعد الاطاحة به ، وبالتحديد في اول تموز (يوليو) ذهبت الى الجزائر مع بعض الاصدقاء ، وحاولت ان اعرف اخباره ، هل هو حي ام ميت ؟ وقابلت امه التي كانت لا تكف عن البكاء . طلبنا من السلطات الجزائرية ان تسمح لنا بمقابلته ، او على الاقل ان تسجل لنا صوته لتبديد القلق . وبالطبع خرجنا بلا شيء .

وبادرت الى تكوين لجنة دولية للدفاع عن احمد بن بلة . والدته انتظرت ثمانية اشهر ترى ابنها . وتقول ان احمد بقي ثمانية عشر شهرا

وشر بيزته العسكرية ينتظر كل لحظة زوار الفجر لينفذوا فيه حكم الاعدام.
لقد عاش هذا الزعيم حالات نفسية رهيبة تفوق حدود التصور والخيال .

— ما هي المعلومات التي ترفرت لديك عن سجن بن بلة واوضاعه ؟

— المعلومات التي وصلتني عن طريق الاصدقاء وزوجته وامه ، كانت تؤكد على أن بن بلة موجود في مكان يسمى بئر التوتة ، بين الجزائر العاصمة ومدينة البليدة (تبعد عن الجزائر بـ ٥٠ كلم) . وهذه المنطقة كانت تقع تحت نفوذ العقيد عبد الله بلهوشات الذي يرجع له فضل حماية بن بلة من القتل .

وكانت الحراسة المضروبة من الخارج عليه تتكون من ٥٠ شخصا من بينهم الجيش وافراد من المخابرات العسكرية . بينما زرع مسكنه بوسائل التقاط الصوت والمصورة . وزوجته كانت تتعرض في كل دخول وخروج لسجن زوجها الى تفتيش دقيق . وانا اقدر كثيرا جراءة وشجاعة هذه الجزائرية التي ضحت وقبلت السجن الارادي ، من اجل احد قادة الثورة الجزائرية .

— وبماذا كان يهتم بن بلة في سجنه ؟

— بن بلة بقي قريبا جدا من العالم وبالخصوص العالم الثالث . وهذا واضح من نوعية الكتب التي يطلبها مني ، عن طريق زوجته . فهي تدور حول الازعاج السياسية والاقتصادية والثقافية في العالم الثالث ، وكذلك بعض الكتب التي تتحدث عن الفن المعماري والحضارات ، فاهتماماته كأي مثقف متابع . وآخر كتاب بعثته له هو « العرب » لمكسيم رودنسون . وحدثني زوجته بأنه معجب بكتاب « السلم الابيض » الذي يتحدث عن هنود أميركا اللاتينية .

اما القضايا التي تشغله ، فتأتي القضية الفلسطينية في مقدمتها ، وهو يتابعها عن طريق الصحف والاذاعة والتلفزيون وبعض الكتب والدراسات . ويقولون انه مستاء جدا من اتفاقية كامب ديفيد .

— ماذا يقول بن بلة عن الخلاف الذي كان بينه وبين بومدين والذي أدى الى الاطاحة به ؟

— التهمة التي وجهت الى بن بلة هي « احتكار السلطة والحكم الفردي » ، ولكن الخلاف الحقيقي كان حول المليشيا التي انشاها بن بلة

وكانت تضم عددا كبيرا يوازي جيش الثكنات . وهذا ما اقلق وزير الدفاع هواري بومدين وجعله يتخوف من نفوذ تلك المليشيات الشعبية المسلحة ، وكذلك تعيين الطاهر الزبيري رئيسا للاركان دون الاخذ برأي بومدين . وزيادة على هذا فان بن بلة كان يشكك في نوايا بوتفليقة ويريد التخلص منه . هذا بعض ما يقوله الذين راوا بن بلة ، ويؤكدون ان نقطة ضعفه هي ثقته المطلقة بالرجال المحيطين به .

— من هم الذين توسطوا لاطلاق سراحه ؟

— الكثير من القيادة البارزين ، منهم الجنرال ديفول وجمال عبد الناصر الذي كان يكنّ ودا حميما لبن بلة ، وفيدل كاسترو الذي كان يلح في كل لقاء مع بومدين على اطلاق سراحه ، ولكن هذا الاخير كان يعرض الافراج عنه بشروط لم يقبل بها السجين .

واليوم اعتقد بأن اشياء تغيرت . فالرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد ينهج خطا سياسيا يبعث على الامل في تحقيق وافساح مجال واسع للديمقراطية في الجزائر .

— ما هو الوضع الصحي والنفسي لبن بلة اليوم ؟

— احمد بن بلة في صحة جيدة ، ويتمتع بمعنويات مرتفعة ، رغم انه اقدم معتقل سياسي في العالم .

— وهل سيعود بن بلة الى الميدان السياسي بعد الافراج عنه ؟

— لا استطيع ان اجيب على هذا السؤال . ولكن كل ما اعرفه انه انسان حيوي ونشيط ، وليس من النوع الانطوائي الذي يصبو الى الانزواء ويخاف من قول كلمة الحق .

مدخل

التقيت بالرئيس بن بلته^(١) في شهر فبراير (شباط) ١٩٦٣ بمركز تثقيف وإيواء الأطفال ماسحي الأحذية^(٢) بسيدي فرج^(٣). وكان الأطفال ماسحو الأحذية قد وصلوا قبل لحظات على ظهر حافلة الى المركز. وكنت أنا وزوجتي مع المدرسين نتتبع ، من الدوش الى ملابس الثياب الجديدة ، ومن الملابس الى المضجع ، نحول الأطفال القذرين والبؤساء الى أطفال صغار نظيفين، يرتدون ملابس زرقاء 'مدفئة'، وما زلت أذكر دخولهم الى المضجع الجديد ذي الأسرة البيضاء . لقد كان ذلك بالنسبة لهم نوعاً من المفاجأة الصارمة . وكان المدربون

(١) شاعت في المشرق العربي كتابته : بن بيلا . وهو نقل حرفي عن الطريقة الفرنسية في كتابته ، والصواب : بن بلته .

- المترجم -

(٢) بعد نحو خمسة شهور من تقلد السلطة الثورية قرر بن بلته تجميع كل الاطفال ماسحي الاحذية بمراكز تثقيف واعطاء عائله كل واحد منهم تعويضاً بـ ١٥ الف فرنك فرنسية قديمة . وفي مظاهرة شعبية لا تنسى ، حضرها بن بلته بنفسه ، أضرَم ماسحو الاحذية القدامي ، النار في 'علب' وأدوات هذا العمل المهين . وكثير منهم يدرسون اليوم في المعاهد الثانوية الصناعية .

- المترجم -

(٣) سيدي فرج خليج صغير وشاطئه سباحة واصطياف جميل يقع غربي العاصمة ومنه احتل القراصنة الفرنسيون بقيادة الجنرال بورمون Bourmont مدينة الجزائر صبيحة يوم ٥ تموز (جوليه) ١٨٣٠ . وقد سجل شاعر جزائري مجهول هذه الحادثة المشؤومة في ٣٠٠ بيت من الشعر الشعبي تروي بمرارة لحظة فلحظة تفاصيل ووقائع هذا الاحتلال من الخليج حتى العاصمة وردود فعل السكان .

- المترجم -

يدفعونهم الى الدخول قائلين للواحد منهم : « تقدم ، لا تخف ، هنا ستنام » .
ولم يجرؤ ماسحو الأحذية على الجلوس على الأسرة ، ولا حتى على
الاقتراب منها .

كان ذلك في شهر رمضان ولهذا وجب انتظار الافطار لادخال الأطفال
الى مطعم المركز . وفي وسط كل طاولة كانت هناك صحيفة من الشورباء الساخنة
المغطاة بالأفوايه . وحولها كان الأطفال جالسين في صمت ، وعيونهم السوداء
مركزة على الصحف بشكل ينطق بالرغبة العارمة في الأكل . وكان ماسحو
الأحذية القدامى ينتظرون الأكل . وفي هذه اللحظة وصل بن بلته يرافقه
بو مدين وبو معزة في ركب من السيارات السوداء كانت تتقدمه الدراجات النارية .
واختلط الوزراء بشرطة الدراجات ، وحدث ذلك في المطعم حركة بهيجة
ودائه ، لأن قدومهم صادف حلول المغرب . وكانت الضيافة توجب ان يقدم
اليهم فوراً البسكوت والفاكهة . وما زالت استحضر السؤرة السعيدة
والجائعة التي اندفع بها شرطيو الدراجات ، بعد ان تخلصوا من خوداتهم ،
لالتهام الطعام البسيط الذي قدم اليهم . وخيل الي ان في الصيام ، اذا فهمناه
على هذا النحو ، لذة سليمة وفائقة . لانه اذا كان كل شيء ممنوعاً بالنهار :
الشرب والاكل ، والتدخين والحب ، فان كل شيء يصبح مباحاً بالليل .
وهكذا فان النهار يقضى في تخيل وشحن الرغاب المستوفزه التي يحيلها الليل
وحده الى رغاب شرعية .

وفي هذا اللفظ البهيج كان الصائمون قد انهمكوا في الافطار بعد يوم صعب .
وقد نسوا الى حد ما ماسحي الاحذية الصغار ، الذين كانوا جالسين بدور
حراك حول حسائهم ، وصحونهم امامهم فارغة ؛ فتقدمت منهم ، وبمساعدة
زوجتي بدأت اخدمهم . وفي هذه اللحظة رأي بن بلته وبسرعة مشى نحوي .

وقد مدت له نفسي . وسمعت منه كلمات لطيفة تخص آثاري الادبية ، و اضاف
ضاحكا : « ظننت انك سفير لدولة اجنبية... لان هذا ما يحدث لي كل يوم .
وامضي وقتي في استقباهم . » وهنا اخذ يحدثني عن صغار ماسحي الاحذية .
وقد تأثرت لصدقه وتواضع لهجته . وقال لي انه لا يتعلق باذيال الوهم بخصوص
اهمية التجربة . وانه يرى ان الحل الدائم شيء آخر . وكان يردد : « انها
ليست الا بداية ، بداية جد صغيرة . لكننا سنواصل . »

وبعد عدة شهور من هذا اللقاء استدعاني للغداء على مائدته بفيلا جولي
بمعية صديق جزائري .

ابداً لم يسكن رئيس دولة في شقة متواضعة مثلما فعل بن بلّـه^(١) . ربما
باستثناء فيديل كاسترو بـ « لا هافانا » الذي كانت له رفاهية وحيدة هي الشرفة
التي يفتح عليها الاستوديو الصغير الذي يسكن فيه ، والتي نضد عليها بعض
ادوات الرياضة البدنية ، وسلة للباسكات .

وقد كانت محادثتي مع بن بلّـه طويلة ، ومحتدة ، ومفيدة . لقد تحدثنا
طويلا عن كوبا التي كنت قد عدت منها حديثا . وصداقة بن بلّـه لكاسترو
صداقة حميمة . وقد اندهشت ، وانا استمع اليه ، انه هو ايضا يفكر بتطور
بلاده على نحو عملي ، pragmatique . وبكل وضوح فالجيل الثاني من الزعماء
الثوريين الكبار لا يشابه الجيل الاول : انه يهتم قليلا جداً لمسألة المذهب .

(١) اذكر انه في بداية عام ٦٣ عندما زار لأول مرة مدير جريدة الاكسبريس الفرنسية
شقة بن بلّـه التي تشتمل على غرفتين وستة كراسي وبدون تأثيث اندهش فقال له بن بله بصراحة
الفلاح الجزائري : « عندما تسمع اننا انتقلنا الى القصور فاعلم اننا خننا شعبنا » المترجم

وقد اثار بن بلته ايضاً ، في هذه المحادثة ، بعض ذكريات حياته في الجيش الفرنسي ، اثناء حملة ايطاليا . وقد بدا لي ، وانا استمع اليه ، اننا كنا نعرف شيئاً قليلاً عن رجل 'دعي' ، بفضل شخصيته وبفضل صموده ، ليصير اعظم رئيس دولة افريقي وبالتأكيد احد زعماء العالم الثالث . وبعد هنية طلبت منه ما اذا كان يوافق ، عند الاقتضاء ، ان يقص عليّ تاريخ حياته ، فقبل .

وبعد شهر من هذه المحادثة ، في ربيع ١٩٦٤ ، دعاني بن بلته . واتفقنا على تسجيل محادثتنا على آلة تسجيل Magnétophone لكي لا التحشم غناء تسجيلها بالقلم . وقد عقدنا خمس عشرة جلسة كانت كل واحدة منها تدوم ساعتين او ثلاثاً . وكان خلال هذه الجلسات جميعها هادئاً ومبتسماً ، من غير شعور بالاكراه وبلا نفاد صبر . ولم يحاول بن بلته مرة واحدة ان ينهي بنفسه هذه الجلسات . وبتأدب فلاحجيّ صادق كان في كل مرة يترك لي المبادرة . وكانت تسجيلاته في البداية باللغة الصعوبة . لان مخاطبي كانت له عادة حيرتني قبل ان افهم مصدرها : فهو ، مثل جميع الناس الذين قضوا جزءاً كبيراً من حياتهم في النضال السري ، لم يكن أبداً يذكر اي اسم او اي تاريخ .

وكان لا يريد ان يبوح بأشياء ، هذه المرة عن قصص . وذات مرة شرح لي السبب في انه لم يكن يرغب في الخوض في مسائل داخلية تهم حكومته . ولم يكن يرغب ايضاً في أن يقول شيئاً بخصوص نزاعاته مع المغرب ولا بخصوص التمرد بجهة القبائل . لأنه كان يرغب في كلتا الحالتين في التوصل الى وفاق . وفي الفصل الاخير من سيرته الذاتية لم يكن بن بلته يرى بعين الرضى كل مظاهر السياسة الجزائرية من ١٩٦٢ الى ١٩٦٥ ، ولكن التجربة الاكثر أهمية والاكثر أصالة لحكومته ، التي هي التسيير الذاتي ، كانت بكل تأكيد تحظى بكل حماسه وبكل اهتمامه .

عندما كنت أسجل منه هذه المقابلات كان عمره ٤٦ سنة . وكان في صحة موفورة. وكان يبدو أصغر مما هو في الواقع: طويل، ذو جسم رياضي ، بدين بعض الشيء ، مشرق المحيّا . إن فيه - بالأخص في ابتسامته وفي طيبة نظراته - شيئاً من الطفولة ومن الاطمئنان اللذين لا ينتظر المرء ان يحدهما لدى رئيس دولة ، وفي الوقت نفسه كنت أشعر ان عند بن بلّيه الشجاعة والاعتزاز الطبيعي وصراحة الفلاح العنيفة . انه يتحدث الفرنسية بطلاقة فائقة عدا بعض العثرات ولهجته النابية بعض الشيء ، ولكن ايضاً يتحدثها بنكهة ودقة لم يعد لهما أثر عند المثقفين من أبناء بلاده الأكثر تضلعاً. لم يمض بن بلّيه في دراسته الى اكثر من الشهادة الاعدادية BREVET .

وهو الى حد كبير رجل عصامي ^(١) . ولكنه تعلم في النضال السياسي ، اكثر مما تعلم في الكتب . انه ذكي ، متفتح ، مسلم ولكن بدون تعصب . شديد العروبة ولكن بدون بغض للاجانب ، هذا البغض الذي يسود اليوم في الأوساط الحاكمة بالجزائر ^(٢) . وعند بن بلّيه يلمس المرء عاطفة انسانية

(١) لم يتعلم بن بلّيه في المدرسة إلا فك الحروف العربية . ولكن في غمار مهام اضطلاعهِ بالسلطة الثورية حيث - كما يعرف ذلك كل الناس - لم يكن ينأى إلا ٤ ساعات في الـ ٢٤ ساعة كان يداوم بحماس لا يضاهيه الا حماسه للعروبة وقضاياها على تعلم اللغة العربية . وحقق فيها تقدماً مرموقاً لم تتأسك صحيفة - جون افريك - ان تندesh للسرعة التي تم بها . وفي مدة قصيرة اصبح يستطيع ان يخطب لعدة ساعات بعربية مضبوطة وسليمة . - المترجم -

(٢) هذا البغض للأجانب ذو ألوان ، لأنه يسلط في نفس الوقت على المدرسين المصريين الذين وصفوا بأنهم « غير اكفاء » وعلى الاطباء البلقاريين المخلصين الذين يعتبرون اليوم بأنهم : « لا يصلحون لشيء غير مهنة التمريض » وعلى شاب فرنسي مسلم اعتقل اخيراً وسط ضجيج دعائي ووصف بأنه رئيس عصابة في المعارضة . ولكن بغض الاجانب عند الحكام الجدد لا يستبعد ابداً ربط العلاقات التجارية مع الشركات الصناعية في المانيا الغربية .

- روبير ميرل -

رائعة . واذا لم يكن قد اغتيل ^(١) ليلة ١٩ جوان (حزيران) واذا قدمته الحكومة الحالية الى المحاكمة - التي لا تقتأ تعلن عنها وترجئها باستمرار - فانه سيكون من الصعب جداً ان يتهم بأنه أراق الدم الجزائري .

وفي ظل حكمه لم يحدث ان نفذ حكم الاعدام في أحد باستثناء العقيد شعباني ، الذي لا يمكن الدفاع عنه ، والذي تمقته بعمق الجماهير الشعبية التي كانت عصاباته تشيع بينها الرعب .

لقد لعب بن بلّته دوراً عظيماً في التحضير لاندلاع الثورة الجزائرية . وهو يستأهل ، بدون مرأى ممكن ، لقب « الرئيس التاريخي » . وقد اضطلع اثناء الثورة المسلحة بمهام حربية خطيرة، وقد كانت ولايات جيش التحرير اول من تضرر من أسره في حادثة اختطاف الطائرة . ولما كان احد بعده يهتم ، وسط البذخ الخارجي للحكومة المؤقتة ، مثلما اهتم هو بمحاربي الداخل . وبعد الاستقلال ، رغم بعض الترددات وبشمن بعض الاخطاء ، فانه طبق بكثير من الاخلاص برنامج طرابلس ، وحارب مضاربات البورجوازية الجزائرية وأطاعها . واقام في الجزائر اشتراكية زراعية ، وبواقفة الواضحة التي لا مكان فيها للحلول الوسطى فيما يتعلق بالقضايا الافريقية ، فانه استطاع ان يمنح بلاده ، في امد قصير هيبة أمية كبرى .

ان انقلاب ١٩ جوان - حزيران - بمواكب تجنيته ومسارماته وايقافاته ، وحصد المتظاهرين بالرصاص في الطريق العام ^(٢) ، وتعذيبه السري ، وتنفيذه

(١) عند ما كتب روبيرميل هذه المقدمة لم يكن قد عرف ان بن بلّته ما يزال حياً .

(٢) ذكرت جريدة « Le Monde » في عدد لها صادر في شهر آب ١٩٦٥ وسمحت له الحكومة الانقلابية بالرواج في الجزائر ان عدد المتظاهرين الذين حصدوا بالرصاص يوم ١٩ جوان -

لاحكام بدون محاكمة، بدا لي منذ اول يوم انقلاباً ثكنانياً CUARTELAZO من طراز اميركي جنوبي خالص . وبهذا الصدد ، انه لعلامة لا تخطيء ، ان حكومة العسكريين التي استولت على السلطة بقوة السيف لم تتكلم في اي لحظة عن ترك الكلمة الاخيرة للشعب الجزائري بالتجاءلتنظيم استفتاء شعبي . ورغم اتساع الوسائل البوليسية التي تتصرف فيها ، ورغم التقاليد الاستعمارية لتزوير الانتخابات في الجزائر ، فان المتآمرين لم يحرثوا على دعوة الجماهير الى صناديق الاقتراع ليطلبوا منها إسباغ الشرعية على اعمالهم . لقد شعروا بأن ارجاع بعض الاملاك المسيرة ذاتياً الى المالكين السابقين ، والتخريب الخفي للتسيير الذاتي بعدم دفع الاجور لعماله ، لم يترك لهم الا قليلاً جداً من الحظوظ للفوز في استفتاء شعبي صريح .

ومن جهة اخرى فان موقفهم 'يلقي ظلالاً من الشك المريب على مصير بن بله' لقد اعتقدت بعد ١٩ جوان مباشرة ان بن بله قد ذبح في ليلة الانقلاب نفسها : وهذه الجريمة كانت تبدو لي من منطق الانقلاب الثكناني ومنطق الذين حضروه . منذ ذلك الحين والمسؤولون ، رغم انهم واصلوا التحدث عن بن بله ، علناً ، على نحو حقود ، يؤكدون مراراً بأنه مازال حياً . ولقد تأثرت بهذه التأكيدات من غير ان اكون مقتنعاً بها تماماً : فاذا كان بن بله حياً ، فلماذا ، منذ ١٩ جوان لم يقبلوا بان يراه شاهد لا طعن فيه : دبلوماسي عربي او رجل قضاء اوروبي مثلاً ؟ وانه لمن اليسير على المسؤولين بان ينجوا مرة والى

→ هو كما يلي : ١ في سكيكده و ٢ في تبسه و ٩ في وهران و ٤٠ في عنابه . وان كنا نعرف بما لا يدع مجالاً للشك ان عدد شهداء ذلك اليوم المشؤوم كان على الاقل ضعف ما ذكرته الصحيفة الفرنسية ، في فصلها الذي كالت فيه المديح للنظام الجديد ، بالخاص في عنابه التي ظلت جدرانها اياماً مرشوشة بالدم .

- المترجم -

الابد من الاتهام الشنيع : بانهم مثل تشومي طلبوا الشهرة عن طريق اغتيال خصمهم .

اذا افترضنا ان بن بله قد قتل ليلة ١٩ جوان ، فانه من اليسير جداً ان نتصور بان المتآمرين ، تجاه عنف رد الفعل الشعبي ، قد فضلوا عدم اعلان موته فورياً ، وبانهم ارجأوا ذلك الى اللحظة التي يكون فيها حكمهم اكثر تمركزاً والخواطر اكثر هدوءاً . واسطورة « أسر » بن بله قد لا تكون والحالة هذه الا مجرد تلفيق ينسجونه بالبلاغات المتعاقبة والندوات الصحفية ، وبالاسرار الزائفة التي تعطي للصحفيين الى اليوم الذي تصبح فيه الحكومة ثابتة . ويومئذ تحيط العالم علماً بأن بن بله قد مات مريضاً في زنتانته ، او بأنه انتحر فيها ، او انه جرح جرحاً مميتاً اثناء محاولة فرار ...

ومها يكن من شيء فان السر يجب ان يرتفع ان عاجلاً وان آجلاً . وارغب من صميم القلب ان يكون الافتراض الذي تحدثت عنه خطأ . وآمل ، بدون ان اعتقد تماماً ، أن يكون بن بله حياً وبأن يحاكمه خصومه علانية حيث يستطيع ان يطعن لدى محكمة التاريخ ولدى الشعب الجزائري في حكم قضاته .

اريد اخيراً ان اقول كلمة حول الطريقة التي ارتأيت بها هذه السيرة الذاتية . لقد رويت هذه القصة بضمير المتكلم حتى احتفظ لها بالحيوية ، والحرارة . وايضاً بأصالة الرجل الذي روى لي حياته . ولكن ما هو طبيعي ، أن الاسلوب الأدبي وشكل الصياغة هما من صناعي . وبالنسبة لي كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي استطيع بها ان ادخل نظاماً ووضوحاً وانسياقاً في

هذه المحادثات التي كانت بالضرورة متقطعة . واذا كنت سمحت لنفسى بحرية التحرير والاسلوب ، فاني بقيت وفياً بعمق لروح النموذج الاصلي . اذا كان بن بلة حياً ، واذا 'سمح له بقراءة هذا الكتاب - وذلك ما أشك فيه - فاني لا أخشى أبداً ان ينكر من أمر هذا الكتاب شيئاً . واذا كان قد مات فان الشريط الذي سجلت عليه محادثاتنا التي أعيدت في اكثر من نظير، محفوظ في أمكنة أمينة ، يظل الكفيل بصدق ما سجلت في هذا الكتاب .

روبير ميرل

الفصل الأول

مَفْنِيَّة

وُلِدَتْ يوم ٢٥ ديسمبر ١٩١٨ بـ «مغنية» . ومغنية هي قرية صغيرة في جهة وهران ، جد قريبة من الحدود المغربية . كان أبي فلاحاً . وكان يملك قطعة ارض صغيرة مساحتها ثلاثون هكتاراً على بعد ٣٠ كلم من مغنية . ولكن الارض كانت فقيرة ، وليس بها ماء . وكان أبي يحصل على موارد عيشنا من تجارة صغيرة بمغنية حيث كنا نسكن .

لي أربعة اخوة . الأخ الاكبر عمر شارك في حرب ١٤ - ١٨ بكتيبة المدفعية الجزائرية ، وجرح جرحاً خطيراً في الجبهة ، فأعيد لأرض الوطن ومات في تلمسان متأثراً بجراحه . والثاني اسمه عبدالقادر ، ولكننا نناديه تَحَبَّيباً قويدر ، مات مريضاً بمغنية . والثالث يدعى رحال كان يعمل بشمال فرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية وهناك تزوج . ولكن في سنة ١٩٤٠ اختفى . وكل التفقيشات عنه لم 'تجدِ نفعاً . واعتقد انه قتل خلال الهجرة الجماعية اثناء الحرب .

وأخي الرابع يدعى وسّيني ، على اسم ولي من أولياء جهة مغنية ، سيدي محمد وسّيني. في عام ١٩٣٩ دعي للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي،

وفيه أُصيب بالسل ، ومات في العام نفسه . وكذلك في هذه السنة نفسها توفي والذي بمغنية .

وإذن ، فمن الرجال بعائلتي أنا الرجل الوحيد الباقي على قيد الحياة . ولي شقيقتان صفراهما هبة تزوجت من امام اسمه الشيخ ميمون ، وعندما التحقت بالنضال السري اعتقله البوليس الفرنسي ورماه بالسجن حيث قضى اربعة عشر عاماً .

والدتي ما تزال ب قيد الحياة . وهي عجوز هرمة ولكنها لا تعرف بالضبط سنّها . ففي آخر القرن التاسع عشر كان تسجيل الولادات ب قيد النفوس محل تهاون عظيم على الأقل اذا كان الأمر يتعلق بـ « ليزانديجان ^(١) » . وفي المرة الأخيرة ، عندما زارتني والدتي هنا بفيلا جولي قلت لها : « حاولي أن تتذكري متى ولدت » ، فأجابت : « اسمع يا ابني ، أعتقد ان عمري كان ١١ عاماً عندما مات مولاي الحسن ، والد محمد الخامس » . وبما اننا نعيش في مغنية على مرمى البصر من الحدود المغربية فان كل ما كان يقع في المغرب كان يحذ في نفوسنا رجوع صدى كبيراً . واذا كانت ذاكرتها دقيقة فان والدتي يكون عمرها الآن ستة وثلاثين عاماً .

في طفولتي بمغنية لم أشعر ، كما شعرت في تلمسان فيما بعد ، بالفرق بين الفرنسيين والجزائريين . كان الاوروبيون حفنة من الكولون (المعمرين) في اكثريتهم . وكان هناك كثير من الاسرائيليين . والمجموعات الثلاثة كانت تتعايش في سلام . مثلاً في مغنية كان اليهود والفرنسيون والجزائريون لا

(١) لانديجان او المواطن الاهلي : كلمة احتقارية كانت تطلقها الطبقة الاستعمارية على سكان الجزائر . وهي تعني في مفهوم هذه الطبقة مرحلة وسطاً بين الانسان والحيوان . - المترجم -

يشكلون إلا فرقة واحدة لكرة القدم . والتلازم المستمر في داخل هذه
الفرقة الوحيدة دعم صداقتنا .

في مدرسة مغنية ، على ما اذكر ، لم يكن هناك أي تمييز عنصري .
وما زلت احتفظ بذكرى طيبة للمدرستين اللتين علمتاني القراءة
والكتابة بالفرنسية . كانتا امرأتين جديرتين بالإعجاب وكانتا تعيشان فقط
لمهنة التدريس احدهما كانت من أصل كورسيكي وتدعى انتوني . ولم استطع
التوصل لمعرفة اسم الثانية . والاثنان على ما اعتقد قد فضلنا البقاء في وهران
بعد الاستقلال .

كان مدير المدرسة يرعبنا . وكنا نمتليء خوفاً من مجرد تقطيب حاجبيه .
وبما ان لحيته كانت غير حلقة ، فقد كنا نظن انه من الطبيعي تماماً ان
ندعوه : ابو لحية . وفكرة كونه ولد بدون لحية ، ومن اب أمرد او فقط
ذي شاربين لم تُخالط عقولنا تماماً... هذا الرجل الخيف كان له مفهوم دقيق
للطاعة . ولكنه كان ايضاً الطيبة بعينها . وكان مع تلاميذه - جزائريين
وفرنسيين - منصفاً .

عندما آن اوان الشهادة الابتدائية اضطر أبي لتزوير بطاقة ولادتي وان
يزيد لي في عمري عامين . لأني كنت جد صغير للتقدم لامتحان الشهادة . وفي
قريتنا لم تكن التزويرات من هذا النوع تطرح اي مشكل لان اي احد ، كما
ذكرت ، لم يكن يعير اهتماماً للحالة المدنية (قيد النفوس) بالنسبة
لـ «ليزاندريان» ولكن تغيير تاريخ ولادتي كانت له نتائج بعيدة . فقد دعيت
للخدمة العسكرية سنة ١٩٣٧ بدلاً من سنة ١٩٣٩ . لا شيء اكثر لَدَدًا من
خطأ اداري فحتى الآن يتفق لي احياناً ان اقرأ في الترجمات الوجيزة عن
حياتي والصادرة عن حكومي انني ولدت سنة ١٩١٦ .

ولما نجحت في الشهادة الابتدائية ، تقرر ان اذهب الى المدينة لمواصلة دراستي . وفي تلمسان تكرم صديق لوالدي ان يستضيفني كامل المدة اللازمة للحصول على البروفيه . كانت عمري احد عشر عاماً . ولم اكن قد غادرت قريتي ولا عائلتي ابداً . وبالنسبة اليّ انا ابن الفلاح ، كان الذهاب الى المدينة للدراسة مغامرة كبرى .

ولكن سروري لم يدم . ذلك ان العلاقات بين مجموعات المتساكنين في تلمسان لم يكن لها هذه الطيبة السطحية التي كانت موجودة في القرية التي كانت تخفي حقائق الاشياء . في تلمسان كان التصدع بين عالم الاوروبيين وعالم الجزائريين واضحاً . والتميز العنصري حتى في المدرسة كان كالشمس في رائعة النهار. لقد شعرت في تلمسان لأول مرة أنّي انتمي الى مجموعة من الناس يعتبرها الاوروبيون منحلة . ولأول مرة فهمت انني اجنبي في بلادي .

اعتقد اني كنت في الرابعة عشرة عندما حصل حادث في المدرسة التسيكية كان له في نفسي اثر عميق . ذلك انه كان لنا مدرس يدعى بن افيديس « Ben Avidès » ويحتفظ بهذا الاسم العربي من اصله الاسباني البعيد. ولكنه كان فرنسياً . وكان بيد اغوجيا ممتازاً ، عندما لا ينهكنا باستطرداته حول كل ديانات الارض . لقد كان في الواقع منتسباً لجمعية دينية اميركية تؤمن بعودة المسيح - Adventisme . وكان مطمئناً الى انه يمتلك الحقيقة التي يحاول ان ينشرها في كل مكان حتى في الفصل . وكان في نفسه شيء من اسلافه ، قضاة محاكم التفتيش الاسبانية . ولكي يكون اعتقاده هو الصحيح يجب ان تكون كل المعتقدات الاخرى سيئة وجديرة بالاحتقار .

ذات يوم ، في الفصل ، لم يتورع عن مصادمة تلاميذه المسلمين بالتهجم

بعنف على الاسلام، فقال لنا صاحبا في خلاصة تثریب طویل: «نبیک محمد کذاب،
فانتصبت قائماً وكان الغضب قد صفّر وجهي وقلت له :

—سیدی تستطيع ان تقول هذا امام اطفال . لاننا صغار جداً . ولا
نعرف شيئاً لكي نناقشك . ولكن يجب ان تفهم بان ديننا مقدس بالنسبة لنا .
كلا . كلا . انه ليس جبيلاً منكم ان تقولوا هذا الكلام .

لم اعد اذكر بالضبط الكلمات التي قلتها . لانني كنت ارتجف من شدة
الغضب . ربما كنت اكثر عنفاً . وكان من الطبيعي ان ينفجر بن افيديس
فعاقبني وطرّدني من الفصل وهدّني حتى بالطرد من المدرسة تماماً ؛ ولكني
صمدت . وشيئاً فشيئاً هدأت الفضيحة . ولقد شعرت بهاانا فضيحة مضاعفة .
بالنسبة لتلميذ ، فان تذكير مدرس بمحدود وظيفته كان شيئاً سيئاً . ولكن
ان يكون هذا التلميذ « انديجان » ويختصم مع أوروبي، فان ذلك كان الف
مرة شيئاً جديراً بالعقاب .

ولأن هذا الحادث جعلني مريضاً لاكثر من خمسة عشر يوماً ، ولأنه ترك
في نفسي آثاراً لن تزول، فاني ما زالت محتفظاً به في الذاكرة ولكنه لم يكن
الحادث الوحيد سواء في المدرسة او في المدينة فان الف صدام صغير كانت
تذكرني كل يوم بالتمييز العنصري الذي كنا موضوعاً له . لقد كنت مصمماً فيما
يخصني على عدم قبول هذا التمييز ابداً . ومنذ ذلك العهد شعرت من اعماق
قلبي انني تأثر .

هذه الخصومات ، وهذا التوتر لم يكونا ليسهلا دراسي . وفي نهاية عامين
قضيتها في تلمسان ، لم اعد ذلك التلميذ الطيب الذي كنته في مغنيه . وهكذا
كنت اشعر بعزلي في مدينة كبرى بعيداً عن عائلتي وبعيداً عن أبي . وشعرت
بذلك اكثر عندما افلس صديق ابي واصبحت وضعيته المالية بين عشية وضحاها

شديدة السوء . ورغم هذا فان هذا الرجل الجدير بكل اعجاب لم يرد ان يسمع مجرد الحديث عن رحيلي . وواصل إسكاني وإطعامي ولكني انا لم اكن آكل خبزه بدون شعور بتبكيك الضمير ؛ وكنت متأثراً من رؤية هؤلاء الرجال الشجعان متورطين في الصعاب . وهذا ايضا لم يكن ليسهل دراستي .

اعتقد ان ما انقذ توازني المعنوي في هذه الفترة هو الرياضة التي انغمست فيها بحماس فائق ، بالاخص كرة القدم ، التي ملكت علي نفسي وحقت فيها تقدماً سريعاً . لقد كانت الرياضة بالنسبة لي ظاهرة للتعويض . ومن الطبيعي انني افهم هذا اليوم . فقد كانت الرياضة مجالاً لا ألقى فيه قسراً ولا حدوداً غير حدود قوتي .

وعندما كنت ادفع الكرة امامي هاجما بسرعة على هدف الخصم ، فارتاح احداً لم يكن ليطلب مني ما اذا كنت « جزائرياً » ام « أوروبياً » . الامر كله لا يتعدى كوني اسجل الهدف او لا أسجله . ان اخفقت فأنا المسؤول عن اخفاقي . وان نجحت فأنا الذي يعتز بذلك .

كنت لاعباً بخط الوسط ، وفي ذلك العهد كان لاعب الخط الوسط يقوم بعمل خارق للعادة ، دفاعياً وهجومياً . وكان دائماً عرضة للمتابع . لقد تغيرت اليوم الأساليب . وفرقة اللاعبين في الملعب تتصرف بشكل آخر . وبصفتي لاعباً بخط الوسط في تلمسان فقد كنت قطب الفرقة : الفرقبة الجزائرية . اذ ان التمييز العنصري في تلمسان كان عكس ما كان عليه بمغنية ، وقد تسلل حتى الى الرياضة . ومرة في كل عام كانت فرقة الكولون تتقابل في الحوض الكبير مع فرقتنا . وللحقيقة اقول ان فرقة الكولون هي التي كانت تفوز عادة . لقد كنا اكثر تفوقاً عليهم من حيث التكنيك الخالص ،

ومن حيث المهارة ، ولكنهم كانوا اكثر ثقلاً ، واكثر قوة . وباختصار لقد كانوا يأكلون أفضل منا .

وفي هذه الفترة اتصلت بالأوساط الوطنية ، اذ ان الاتحاد الوطني للمسلمين بشمال افريقيا ، الذي أصبح في سنة ١٩٣٧ حزب الشعب الجزائري ، كان قد تأسس حديثاً . وقد جذب هذا الاتحاد اليه الجزائريين المصممين على عدم قبول الواقع الاستعماري كضرورة أملت لها الطبيعة . وبالأخص الشباب المتحمسين والصامدين . ومن بين هؤلاء كان عبدالقادر بركه الذي لقني دروس الوطنية الاولى . وكان اكبر مني بعام ويدرس بمدرسة قرآنية . والتيار الوطني كان في ذلك العهد اكثر قوة في المدارس القرآنية لأن روادها كانوا مسلمين مئة بالمئة عكس الواقع في المدارس الفرنسية . وعبدالقادر بركه كان مثلي من مغنيه : انه انسان كريم ومخلص بغير حدود ، لقد اعطى نفسه جسداً وروحاً للقضية الوطنية . وهذا الرجل الطاهر ألهمني صداقة عميقة ومارس تأثيراً بعيد المدى على تكويني السياسي . ومع الأسف لقد مات حتى قبل بداية نضالنا . لقد جرفته وباء التيفوس الكبير سنة ١٩٤٠ وهو في الخامسة والعشرين . ولقد خسرت بعده رفاقاً كثيرين كانوا عزيزين على نفسي ولكن فقد أي منهم لم يزلزلي كما زلزلني فقد عبدالقادر بركه .

في سنة ١٩٣٤ اجتزت امتحان البروفي وعرفت بدون مفاجأة انني سقطت ، وقررت ان لا استأنف من جديد الدراسة . وخلاصة القول ان اخفاقي ، على خطورته على المستوى الشخصي ، لم اتأثر له كثيراً . لاني في ذلك العهد بالذات كان قد تمّ اختياري . وهذا الاختيار لم يكن بالتأكيد السعي للحصول على منصب موظف صغير في جهاز الدولة الاستعماري ، والأنسياب في هذا الاطار ، سعيداً برفاهيتي الصغيرة ، ومديراً ظهري لبؤس الجماهير الرهيب .

لقد شعرت بقوة في اعماق اعماقي ، من غير ان اكون قادراً على التعبير عن ذلك بالكلمات ، بان هذا ليس طريقي ، وان نجاحي الشخصي لا يساوي شيئاً ازاء تحرير شعب .

واصبح وضع الصديق الذي كان يؤويني اكثر سوءاً ، ولم اعد استطيع الى ما لا نهاية له ان ارهقه بلقمة اكثر . فقررت العودة الى مغنبيه ، حيث وجدت بعض الشغل ، ولكن بدون ان ارتبط بأي شيء بعمق . عاوت في المزرعة ، وأشتغلت زمناً كسكرتير في الشركة الاحتياطية ، وواصلت ممارسة الرياضة وسجلت نفسي في التدريب العسكري ، من غير حماس . ولكني فكرت بان التدريب الذي سأناله ربما كان نافعاً لي في يوم من الايام .

وفي سنة ١٩٣٧ دعيت للخدمة العسكرية وأحلت على فيلق المشاة الجبليين ١٤١ بمرسيليا .

كان الفيلق ١٤١ يعسكر في ثكنة القديس شارل ، غير بعيد من المحطة التي تحمل هذا الاسم . وكان يضم جنوداً فرنسيين وجزائريين . ولكن ضباطنا كانوا كلهم ضباطاً فرنسيين من فرنسا . ومنذ اتصالي الاول بهم عرفت انهم لا يمارسون التمييز العنصري بين الجنود الفرنسيين والجزائريين . بالنسبة لي كنت كأنما دخلت الى عالم جديد . إن حقوقي كانسان ، أصبحت لأول مرة ، معترفاً بها . وقبلت عن طيبة خاطر الطاعة العسكرية لانها كانت تطبق على الجميع بنفس العدل .

تابعت تمارين فصيلة ضباط الصف . وبفضل التمرين العسكري في مغنبيه استطعت ان اتابعها بدون عناء . ولكن هذا كان لا يكفي . لقد كنت اريد ان امتاز . وأنا اعتقد ، بعد ان فكرت في ذلك ، بان هذا كان إجابتي الفطرية على موقف رؤسائي العادل .

وقد حصلت على برهان جديد على هذه العدالة . ذلك انه في نهاية سنة شهر ، كان الجنود الشبان الذين يتابعون تمارين فصيلة ضباط الصف يجتازون امتحاناً . ولقد عرفت فيما بعد بانه في اللحظة التي كانوا يجمعون فيها مجموع العلامات كان ضابطان او ثلاثة يقطبون حواجبهم لانهم رأوا جزائرياً سيكون على رأس فصيلة تشتمل اساساً على فرنسيين . ولكن ردود فعلهم ظلت معزولة . وساد بين المتحنيين الرأي الذي لا يعبر اهتماماً يُذكر للأصل ، كان الذي هم انما هو الاستحقاق . واذن فقد احتفظت بالمكانة الاولى التي اعطتها لي علاماتي . وهذا لم يكن الا عدلاً بالتأكيد ، ولكن هذا العدل في الجزائر ، كان امراً مستحيلاً .

سميت رقيباً . وكان تحت إمرتي فرنسيون وجزائريون ، وبدوري كنت احاول بنزاهة ان لا امارس بينهم اي تمييز؛ وفي نفس الوقت كنت امارس التمرين على القيادة .

عندما بدأت اخرج من الثكنة ، كان ذلك بالنسبة لي مصدر ابتهاج . كانت مرسيليا جميلة جداً . وكانت جميلة ايضاً الجبال التي تمتد حولها والتي سنحت لي فرصة معرفتها جيداً ، لاني خرجت اليها اكثر من مرة مع فصيلة ضباط الصف . وبعد ذلك مع فرقتي . اما بالنسبة لسكان مرسيليا فلم تكن ثمة صعوبات لأجد لنفسني اصدقاء بينهم . لقد وجدتهم جذلين ، ودودين وحاضري البداية . ولقد اذهلتني حيويتهم الفائقة .

وكانت مرسيليا تلاحظ الجزائريين بتحفظ وبرودة ، على الأقل ظاهرياً ، ووسط المرسيليين ، وهذا أمر عجيب ، كنا نحن الذين نترك الانطباع بأننا من سكان الشمال ^(١) .

(١) لأن سكان مرسيليا يتكلمون الفرنسية بلهجة جد سيئة . - المترجم -

كان من الممكن ان أُسْرَح في عام ١٩٣٩ ، ولكن الحرب العالمية الثانية اندلعت . فاحتُفظ بي تحت العلم وأُحلت على المدفعية D. G. A. برأس جانت . وال «حرب العجيبة» لمرسيليا كانت تشبه السلام شهياً غريباً . ولقد احتفظت بوجه خاص من هذه الفترة بمباريات كرة القدم التي ساهمت فيها . لقد حققت تقدماً مرموقاً كلاعب الوسط ، ومع صديقي النقاش كنت ألعب لحساب فرقة شاتو-كومبير الممتازة التي كان يرأسها السيد مينتي ، ولكن لم أبق فيها إلا زمناً جد قصير ، وانخرطت إثر ذلك في فرقة مرسيليا للالعاب الاولمبية . حيث ساهمت في اللعب لمدة سنة .

منذ كنت جندياً كنت أسأل نفسي كيف اتصرف امام الخطر . وقصف مرسيليا في حزيران ١٩٤٠ تكفل لي بالجواب . كان الهجوم مفاجئاً ورهيباً . وكانت مدافعنا منصوبة على رصيف الميناء ، وذات صباح صاح ووضاح ظهرت فجأة في الجو طائرات شتوكا الالمانية ، وبصغير مصمّ خارق الآذان أخذت تطلق علينا وعلى مدافعنا وعلى السفن الراسية التي أغرقت منها الكثير في دقائق معدودات وألحقت بالرصيف أضراراً كبيرة . وكنت الوحيد الذي بقيت مع مدفعي . اما رجال مدفعيتي الذين ذعروا من الانفجارات ، وجلهم من الجنود الشبان ، فقد لاذوا بالفرار .

لقد كان علينا في المساء ان نقرر ماذا سنفعل . ورفضت ان اصطحب مرة اخرى الرجال الذين خذلوني في العمل . وحصلت من رؤسائي على ان اصطفي بنفسي رجال مدفعيتي . فاخترت جنود احتياط من الكورسيكيين الذين كانوا قد دعوا قبل قليل الى وحدتي العسكرية . وتركوا لدي انطباعات طيبة بمواقفهم .

ولم يكن لي إلا أن أغتبط لهذا الاختيار . فقد عادت طائرات شتوكا

في اليوم التالي أسراباً متعاقبة . ودام الهجوم أكثر من ساعة . ولكن الكورسيكيين ظلوا صامدين تحت النيران . ونجحنا في اسقاط عدة طائرات معتدية . وإثر هذه المعركة أصبحت موضوع حديث ومنحت وسام الحرب . وبعد أيام عندما كان العقيد يملق الوسام على صدري ، وبينما كنت منتصباً أمامه بالسلام العسكري ، أحسست بشعور غريب باللاواقعية : اني أحل بذلة الجيش الفرنسي ، وأتلقى وساماً فرنسياً ، ومع ذلك فلم اكن اشعر بأني فرنسي . بالتأكيد لم اكن اشعر بأي حرج بالمحاربة الى جانب فرنسا : ان معركتها كانت عادلة ، إذ أن الأمر يتعلق بالنضال ضد الفاشية . وكنت أعلم جيداً ماذا تعني الفاشية . فضلاً عن انه في الفيلق ١٤١ لم يكن لي بين رؤسائي ورجالي إلا الاصدقاء . كانوا اصدقاء ولكن لم يكونوا اخوة . وبينهم ، ورغم انهم كانوا ودودين ، فقد كنت اشعر من كل شرايين قلبي بأني عربي . إن أهلي لم يكونوا هناك ولكنهم كانوا على الضفة الاخرى من البحر : عشرة ملايين من الفقراء والمحتقرين ينتظرون تحررهم في صمت .

* * *

سُرّحت من الجندية عام ١٩٤٠ وتلقيت مباشرة عروضاً بالبقاء في مرسيليا كلاعب كرة محترف . وكان العرض مغرياً مالياً ، وكنت اعلم اني قد لالقى اي تمييز عنصري في الاوساط الرياضية . وكنت اعلم ان الجزائر الاستعمارية قد لا يكون لها شيء تقدمه الي عند عودتي غير البطالة ، والبؤس والاحتقار . ولكنني مع ذلك قررت ان اعود اليها . قلت لنفسني انه من المستحيل ان اعيش خارج بلادي . ومن المستحيل كذلك أن انجو بنفسني من المعير المشترك ، بالنجاح الفردي .

عدت الى مغنية بصفيرة الرقيب ووسام الحرب : متاع خفيف لا يعطيني
وظيفة. وكان الوضع في الجزائر يدعو للفرار. إن هزيمة فرنسا واحتلالها جراً
اليها ندرة السلع الغذائية وغلاءها . وبالنسبة لـ « ليزانديجان » الذين يملكون
حتى في وقت السلم أضعف القدرات الشرائية فان العواقب كانت وخيمة .
لقد اصبح الفقر إملاقاً ، والاملاق تحول الى بؤس . وكما في كل وقت ، عندما
يتفاقم نقص التغذية عند اوسع الجماهير الانسانية ، فان الأوبئة تضيق
فتكهنها الى الجوع . وفي سنوات معدودة قتلت حمى التيفوس الطفحجية
Exanthématique مئات الالوف من الاشخاص من بينهم اعز واطهر صديق:
عبد القادر بركه .

عندما عدت الى مغنية وجدت اخي قويدر في مرض خطير . ثم مات
بعد قليل . كم كانت كثيرة المصائب التي حملتها الحرب والمرض الى عائلتي !
عمر ، رحال ، ويسيني وقويدر ، كل اخوتي ماتوا . وكذلك ابي .

بقيت مزرعة والدي مهملة ، فقررت ان اتولى تسييرها . وشرعت في
توسيع المساحة الصالحة للحرثة وذلك بتنقية الحجارة من الارض الموات .
انه لعمل كبير . ابدأ اولاً ببحرث الارض على قدر ما استطيع ، ثم من هذه
الارض المحروثة سطحياً آخذ في التقاط الحجارة باليد ، واحدة بعد اخرى ،
ثم اضعها على تخوم الحقل في هيئة حوش . ولم اكن اربح من الارض الا
مساحة قليلة جداً لان عدد الحجارة كان بلا نهاية . وبعضها كان شديد الثقل ،
ولم تؤد معالجتها واخراجها الى جعل راحتي فقطصلبتين ومتشققتين بل كذلك
اطراف الاظافر . وفي المساء كان النوم يستولي علي بسرعة وانا ثقيل متمعب .
فكنت اغوص في النوم كما تغوص الحجارة في الماء . وكانت تملأ احلامي
الحجارة ايضاً . دائماً الحجارة التي أقتلعها من الارض ، وأحملها نحو الحوش .

لقد كان هذا العمل بلا نهاية . وكان يمكن ان استمر فيه طول حياتي دون أن آتي على الثلاثين مكتساراً . ولكنه علمني بالاقبل الصبر والدأب بهدوء ، يوماً بعد يوم على المشروع ، اي مشروع اعتقد انه جدير بالانكباب .

كانت سلطة المرشال بيتان في الجزائر في اوجها . وكان المستفزون يتجولون بين الجماهير الجزائرية لايقاط الاحكام المسبقة القديمة ودفعمها لتقتيل اليهود . ولكن الجماهير اخذت حذرهما من المستفزين وواجهت الدعاية الرسمية بنفور كامل . زيادة على ان جماهيرنا كانت غارقة في مشاكلها الخاصة ، لأن البؤس الذي غاصت فيه كان يتفاقم شهراً فشهراً .

في الفرقة الرياضية التي كونتها في مغنية ، كان حليفي اليساري في اللعب يهودياً ، روجي بن عمو ، ولا يستطيع الانسان ان يتصور الضغوط التي مارستها علي السلطة المحلية من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٤٣ لكي اطرده من فرقتي . لقد ذهبت السلطة الاستعمارية الى حد تهديدي بالسجن اذا لم امثل «للأيماءات» . ولكني رفضت حتى النهاية ممارسة التمييز العنصري الشنيع ، الذي كنت انا نفسي غالباً من ضحاياه ، على رفيق ممتاز . واستمر روجي بن عمو يلعب معنا اثناء حكم فيشي Vichy . وفيما بعد وقف هو بدوره منا ، اثناء الحرب التحريرية ، موقفاً ليبرالياً مما دفع منظمة الجيش السري الفرنسي O.A.S الى ضرب منزله بقنابل البلاستيك؛ ولكنه نجح من الموت باعجوبة . وبعد الاستقلال ظل في بلادنا . وسررت كثيراً بزيارته لي منذ شهور . وهو اليوم عدل منفذ بوهران .

كنت اواصل تنقية الحقل من الحجارة يجهد ، ولكن ايضاً باصرار . لانه مهما كان هذا العمل صعباً فقد كان ايضاً مغرياً . وهل هناك هدف اجل من أن يجعل المرء ، ولو قطعة جد صغيرة من الكرة الارضة ، منتجة؟.. ولقد غرست

ايضاً ، وبالاخص اشجار اللوز . ولم اكن متأكداً ، في مخاوف ذلك الوقت ،
وانا اعلم ان الحرب ستخطفني من جديد ، من اني سأجني يوماً ولا حبة لوز
واحدة . ولكن ذلك لم يكن يهمني الا قليلا . لان آخرين غيري سيجنونها ،
وقبل ان يتلذذوا بالثمار سينعمون بحمال الازهار .

منذ بضعة شهور رأيت من جديد لوزاتي كان بقي الصغير في سفوح
الريوة ، بعد اكثر من عشرين عاماً ، قد تهدم وكنت اعرف ذلك . وانا لم اعد من
اجله الى مغنیه بل من اجل لوزاتي . انها تقريباً جميعاً قائمة . الا بضع
لوزات هلكت . لا ادري من يجمع اليوم ثمارها . ولكن رؤيتها كبيرة وقوية
بعد هذه السنين جعلتني اجد من جديد ذلك السرور العميق الذي شعرت به
وانا أغرسها .

الفصل الثاني

حملة إيطاليا

جعلني احتلال الحلفاء لأفريقيا الشمالية أتوقع أن يستنفروا جنود الاحتياط .
وخلال صيف ١٩٤٣ دعيت من جديد للخدمة العسكرية . وقد أحالوني على
الفيلق السادس للمدفعية الجزائرية بتلمسان . ولم كان الاختلاف بين الفيلق
١٤١ في مرسيليا والفيلق ٦ في الجزائر واضحا . إن اللامساواة بين الضباط
الجزائريين والضباط الفرنسيين كانت فاضحة . هناك قاعتان للأكل منفصلتان
للصنفين من الضباط ، ومطبخان مختلفان لضباط الصف . وصحوننا لم يكن
لها الحق في ان تتأخى مع صحون الفرنسيين المساوين لنا في الرتبة . وكؤوسنا
لم يكن لها الحق بان تُقرع مع كؤوسهم حتى ولو كانت بكؤوسهم خمر
وبكؤوسنا ماء . ولن أقف طويلا عند الضيق والمهانة التي يسببها هذا
التمييز العنصري .

وكان الجزائريون يضيّقون بذلك ذرعاً أكثر فأكثر ، وبالنسبة للشعوب
الرازحة تحت الحكم الاستعماري ، انفجرت سنة ١٩٤٠ كهزيم الرعد . لقد
تنحى التاريخ عن دروبه التقليدية ، وفجأة اطلق لمسيرته العنان ، فاذا
بالحدود والدول تتهاوى . وكل شيء اصبح موضع شك . وكنا نشعر ان
الجزائر لا يمكن لها ان تظل بعيدة عن هزات العصر العظيمة . كنا نشعر

وكاننا نستيقظ من نوم طويل ونحاول الوقوف متوكئين على التراب الذي كان ملكاً لآبائنا .

في الفيلق السادس نظم الضباط الجزائريون مقاومة للتمييز العنصري كنت انا ملهمها وقائدها . لم نكن قادرين على شيء ذي بال . ولكن ، بالنسبة لنا ، كان شيئاً كثيراً أن نؤكد كرامتنا وأن نبداً النضال ، ولو في نطاق وضعيتنا الضيق . على اية حال لم يخطيء رؤسائي في تحديد دوري في هذه المقاومة . وفي نهاية بضعة اشهر أحللت بدون اقل توضيح للسبب على الفيلق الخامس للدفعية المغربية . وقد كان الاجراء ماهراً . وجدت نفسي جزائرياً بين مغاربة ، في وسط جنود قداماء ومحترفين وغرباء عن كل اديولوجيه . وكانوا قد اصبحوا ممتزجين بالفيلق .

لقد كان من الممكن ان يكونوا كذلك . لانهم كانوا يعاملون فيه معاملة طيبة . ولقد وجدت انا نفسي روحاً تسود الفيلق المغربي الخامس مختلفة عن الروح السائدة في الفيلق السادس . فالكوادر كانت كلها من فرنسي فرنسا . وألحقت بسرية النقيب دوفيلوكور الذي سحرني منذ اللقاء الأول ، لانه كان رجلاً بدون التواء ولا ضيق افق ، انسانياً مع الرجال ، وبطلاً في المعركة . منذ وصولي الى الفيلق الخامس المغربي استدعاني وحدثني بلغة جد صريحة : انه لا يجهل افكاري ، وانه يحترمها ، ولكن سأضيق وقتي سدى إذا أردت أن انشرها بين المغاربة . فضلاً عن اننا سنذهب وشيكاً الى المعارك . وكان يعلم اني عدو للفاشية ، وان النضال ضد المانيا النازية كان له معنى عندي . ألا نستطيع ان ننسى اختلاف وجهات نظرنا في النضال ضد العدو المشترك ؟ هذه اللغة بدت لي معقولة ، وبدون تردد وعدت النقيب دوفيلوكور بأن لا اقوم بأي دعوة بين الناس في السرية . وعندئذ وضعني في

فصيلة المساعد الفونسي حيث أخذت قيادة فرقة . وكان الفونسي من جزر كورسيكا ، مطيعاً منضبطاً في الخدمة . وكان يحب المغاربة الذين بادلوه حباً مضاعفاً . وعلاقاتنا منذ اليوم الأول كانت ممتازة .

بعد قليل من وصولي الى الثكنة حلّ شهر الصيام ، وفوجئت بأن عدداً كبيراً من الجنود المغاربة لم يكونوا يصومون ، وفوجئوا بدورهم برؤيتي صائماً لأنهم يعتبرون الجزائريين ، لكونهم يتكلمون الفرنسية ، متفرنسين أكثر منهم . ولقد أحزنتني أن أرى هؤلاء الرجال الشجعان بعيدين عن الاسلام . ودون ان اكون أنا نفسي أليف مساجد ، فاني مؤمن وأرعى فرائض ديني . لا أشرب خمرأ ولا آكل خنزيراً. بيد اني اذا كنت لا ادخن فذلك ليس عن زَماتة دينية بل امتثالاً لقواعد الصحة الرياضية .

في البداية بدا لي المغاربة حذرين شيئاً ما ، ومنغلقيين بعض الانغلاق . ولكنهم تفتحوا بسرعة . وعندئذ وجدتهم جد مشوقين . لقد كانوا جميعاً جنوداً قدامى و«الزرق» منهم قضوا في الفيلق الخامس عشرة اعوام في الخدمة العسكرية . أما جنود الطبقة الاولى - وهذا الامتياز كانوا يتحاسدون عليه فيما بينهم- فقد كانت أقدميتهم تتراوح بين عشرة واثني عشر عاماً. وهذا الزمن الطويل الذي قضوه معاً يفسر الالتحام شبه العائلي لفرقتهم والتعاطف الذي يحمله بعضهم لبعض . اذا كان هناك شيء يكرهه الجنود المغاربة - بعكس الجنود الآخرين - اثناء حملة ايطاليا فهو إرسالهم الى المؤخرة او الى المستشفى عندما يمرضون . وحالما يتأثلون للشفاء فانهم يرفضون كل رخصة نقاهة ، لأن لهم فكرة وحيدة : العودة الى الجبهة على جناح السرعة للالتقاء بفرقتهم .

ولاجتناب اختلاط الألقاب العائلية كانوا يُدعون بأرقامهم . وبحكم العادة كانوا يدعون أنفسهم بهذه الطريقة ، واحياناً كانوا لا يعرفون من الفرنسية إلا

لفظ أرقامهم . وأنا ما زلت اذكر جندياً مدهشاً ، العريف ٣٩ . كنت ادعوه هكذا خلال شهور ، من غير ان افكر في ذلك . وعندما عدت الى افريقيا الشمالية ، عرفت موته من رسالة بعث بها إلي النقيب دوفيلوكور . ولأول مرة أدركت كم كان غريباً ان لا اعرف اسمه . والنقيب دوفيلوكور هو نفسه يجله ، لأنه كتب لي : « المسكين ٣٩ قد قتل » . وعندما كنت اقرأ رسالته كانت عيناى مثقلتين بالدموع : « المسكين » ٣٩ سيظل مجرد « ٣٩ » الى الأبد الأبد . وللمرة الاولى شعرت بالعار لعدم معرفة اسمه .

وفي أثناء حملة ايطاليا كنت أقضي جل اوقات فراغى ، عندما لا تكون هناك معارك ، في كتابة رسائل وحوالات جنودى المغاربة ، وعناوين الطرود الصغيرة التي كانوا يرسلونها الى ذويهم . كانوا يتمكنون من الحصول على بعض النقود ، لان رصيدهم القليل كان يتراكم بعد عدة شهور في الجبهة . وكانوا حالما يستطيعون يشترون به هدايا تذكارية وحلى غريبة وقطعا من القماش ، وفي حزم صغيرة تزن بصعوبة ٢ كيلو كانوا يرسلون كل شيء الى زوجاتهم . كم قضيت ساعات وساعات في كتابة هذه الرسائل . وفي ربط وحل هذه الطرود الضئيلة ، وعندما يطلبون ذلك منى ، كنت اعطيهم نصائح فيما يتعلق بمشاكلهم العائلية ، اذ انه رغم انى كنت اصغرهم سناً ، فقد كانوا يعتبروننى كأب ، لاني كنت رئيسهم وكنت حديباً عليهم . وفي الوقت نفسه كانوا ، وهذا على شرفهم ، يعترفون لي بالجميل . إن القلب وحده الذي لم يتعفن هو القادر على الشكران . اما الانسان اللئيم فانه لا يشعر الا بالغل عندما يتذكر الافضال .

كانت علاقاتنا ثقة متبادلة ، الى درجة انى ما اكاد آمرهم حتى يطيروا خفافاً امام أوامرى . كانوا قد تعودوا على الانضباط الدقيق . ولكن ايضا

لان هذا الانضباط كان بسيطاً وواضحاً وهم يَهَبُونَ انفسهم برمتها الى الرئيس الذي يشعرون لديه بالحب والعدل .

نزل الفيلق المغربي الخامس بنبولي في ديسمبر ١٩٤٣ ، وكانت تحية هذا النزول هجوماً من اسراب طائرات شتوكا . ولم يتضرر كثيراً لان الهجوم كان مع مقدم الليل . وبالتالي لم تكن الرؤية مساعدة . وفي اليوم التالي ، عسكرنا في الجبل ، وصادف ذلك حلول عيد الأضحى . ونجحنا بعد لأي في العثور على خروف لاكل الشواء التقليدي . ولكن خيبتنا كانت مضاعفة : لقد كان الخروف الإيطالي سميناً جداً، وهذا ما جعله بدون نكهة . وما كدنا نبدأ اكله ، حتى تلقينا الامر بطي الخيام ومواصلة السير .

اخذنا مواقعنا امام جبل يدعى مونتانو ، في معسكر وحدة أمريكية أحست بالراحة عندما رأت مقدمنا ، لان الالمان ، المعتصمين بذرى الجبل باحكام ، كانوا قد اذاقوها اياماً عصيبة، ومعنوياتها كانت اخفض ما تكون وما زلت اذكر بان صحافة الحلفاء كانت تزعم حينئذ ، وباسلوب منتصر ، بأن الجيش الخامس يتقدم بمعدل خمسة كيلومترات يومياً ، نحو الشمال . وللأسف كان ذلك غير صحيح . فالجيش الخامس منذ خمسة وسبعين يوماً وهو لا يَرمي . لان الالمان ، الذين هم دهاقنة تكتيك عسكري ، كانوا يحتلون مشارف جبل مونتانو الاربعة ، وقد تخلوا لنا عن المشرف الخامس بجيلة ، لأنهم كانوا يعرفون اي مشاكل تكوين سيطرحها علينا هذا الاحتلال . وفعلاً لكي نبلغ هذا المشرف الصخري الذي ينتصب ، شرساً ، على ارتفاع ١٥٠٠ متر ، كان لا بد لنا من استخدام الجبال ، وبهذه الوسيلة البدائية، كنا نضعد المؤن والعتاد الى القمة . اصف الى هذا الثلوج والبرد العنيف والجثث المتناثرة هنا وهناك ، في المنطقة الحرام ، حيث جمدها الجليد .

لم تكن ثمة ملاجئ ضد الجليد او قل انها كانت قليلة . نظراً لأن مواقعنا ومواقع العدو كانت على قاب قوسين او ادنى . وقد كانت من المستحيل استخدام الدبابات ، والطيران او حتى المدفعية ، ومن هنا اقتضت المعركة ، مثل سنة ١٩١٤ ، على سلاح المشاة الصغير : البندقية ، والبنادقية الرشاشة ، والرشاش ، والقذائف اليدوية ، ومدافع الهاون . وباختصار ، حرب المواقع الشتائية ، بكل متاعبها : البرد الذي يجمدك حتى العظم ، والإصابات بذات الرئة ، والارجل التي قرّسها الصقيع .

في الليلة الاولى لم يغمض لنا جفن . كان الالمان يتلصصون في الظلام حولنا ، وكانت دورياتهم في كل مكان حتى المنطقة الحرام ، وكانوا يرمون بالقذائف اليدوية ، يستدرجوننا ويلعبون على اعصابنا . وفهمنا من شتائمهم بالانجليزية انهم كانوا يعتقدون انهم ما زالوا يواجهون جنوداً اميركيين . وهؤلاء لم يكونوا ابدأ يقومون بالدوريات . ولم يستطيعوا ان يقولوا لنا حتى أين يقع المركز الامامي للعدو . وشيئاً فشيئاً تركوا الالمان بطوقونهم بهذه الدوريات المتواصلة وهذه التحرشات ، وهذه القذائف وهذه الشتائم .

وأدرك عقيد الفيلق الخامس المغربي بأنه ينبغي علينا ان نتحرك وان نقوم نحن ايضاً بالدوريات . ولم يكن ذلك سهلاً لأن الالمان اغتتموا سلبية اسلافنا الاميركيين ليزرعوا المنطقة الحرام بالالغام . ومنذ الخرجة الاولى قتل عريف على بعد ٣١ متراً منا . ومن ملاحظتنا المستهدفة كنا نستطيع ان نرى جثته ممددة ، وهذا المنظر أحزن المغاربة لأنه مناقض بعمق لتقاليدنا التي لا تترك ميتاً بدون دفن ، إذ سيكون معرضاً لكل رجس ، وهذا الرجس من شأنه أن ينال من حياته في العالم الآخر . وأدركت انه كان ينبغي ان نأتي بالعريف اذا كنا لا نريد ان نخرج ، ربما على نحو لا يندمل ، مشاعر

رجالنا . وطلبت ثلاثة متطوعين وذهبت أنا نفسي معهم في التماس الجثة . وقضينا ساعتين لاجتياز الثلاثين متراً التي تفصلنا عنها . كنت أمشي أمامهم ولكنني أتجنب الالغام الطافرة . كنت أقفز على الحجارة التي كانت تبدو من خلال الطبقة الثلجية الرقيقة . وهكذا كنت أتقدم من حجر الى آخر . وهو جهد صعب لأن الحجارة كانت احياناً جد قسوة بعضها من بعض والمتطوعون الذين كانوا يتبعونني كان عليهم ان يضعوا أقدامهم على مواطئ أقدامي وأن يَسِمُوا ، للرجوع ، الاحجار التي جريتها .

وبسرعة أدرك الالمان ان ثمة شيئاً قد تغير في قطاع موتنانو . وقيادة الحلفاء التي رأينا نصل ، بدون رغبة منها ، بدأت تقدرنا . ذلك انه اثر حملة تونس ، قرر الايطاليون والاميركيون في اتفاق سري بأن لا تدخل الفرق الفرنسية الى ايطاليا . ولكنهم لم يقرأوا حساباً للجنرال ديغول... الذي كان يعول كثيراً ، ولسبب ما ، على إسهام فرنسا في تحرير اوروبا . ولذا بدأ يضع الحلفاء امام الأمر المقتضي بقراره الخاص بفتح جزر كورسيكا . وبنفس التصميم الذي لا يتزلزل فرض حضور فرقة فرنسية في ايطاليا .

وكانت فرقتنا التي استقبلت باستئصال ووضعت ، على ما نمتقد ، في المواقع الأقل مَوَاتاة ، تحتل واجهة عسيرة وبدون امكانيات التداول او الراحة لأن هذه الفرق ، بخلاف جيوش الحلفاء ، لم يكن لها احتياطي . لقد كنا ، اذا جاز القول ، العنصر الدائم للجبهة ؛ ولا أخشى أن اقول ، العنصر الأكثر إقراضاً لمضاجع العدو والأكثر تجربة .

ولما كانت وحدتنا قد برهنت بسطوع على قدرتها في أرض المعركة ، فان الحلفاء رغبوا فينا ليجعلونا غوث باكبر عدد على جوانبهم . وكلما طالت حملة

ايطاليا ، فان فرقاً فرنسية أخرى كانت تدعى الى الجبهة وتوضع ، وهذا مفهوم ، في طبيعة المعركة .

في ١٢ جانفي - يناير - ١٩٤٤ تقدمنا الى الهجوم على سيلفا، وكان الالمان يتقهقرون، ولكن كانوا يشنون علينا سدوداً من المدفعية ، ليعطوا لأنفسهم الوقت للتقهقر بانتظام ولمضايقة تقدمنا . وهذه السدود كانت دائماً مرسومة على نفس النموذج : جزء منها متحرك؛ والآخر ثابت ومرصود لنقط المرور الاضطرابية . وهناك كل دقيقتين أو ثلاث كان رصاص المدافع يسقط مدراراً . كانت فرقتنا قد اجتازت احد هذه المرات وغدت على بعد ٥٠٠ متر منه عندما افتقدت المساعد الفونسي . اقتربت من النقيب فيلوکور :

- نقيبي ، هل شاهدتم الفونسي ؟

- انني حقاً أبحث عنه .

ومرت لحظة صمت ، وقرأت في عينيه اننا نفكر بالشيء نفسه . ثم قال لي بلهجة جافة :

- على كل حال ، يطيب لي أن تبقى هنا ... هل تسمع ؟ اني اعطيك أمراً بان تبقى هنا .

قلت : « نعم نقيبي » .

وفي اللحظة نفسها التي كنت أقول فيها : « نعم نقيبي » كان كل ما كنت أفكر فيه هذا : « هناك لحظات يجب فيها معرفة عدم الطاعة » .

انطلقت أبحث عن الفونسي ، وكانت كثافة الطلق لا تصدق . وكان تقدمي بطيئاً . ورأيت المساعد ممدداً في قلب السد مجروحاً جرحاً بليغاً ، ومنمى عليه ، وقد وضعته على كتفي وأخرجته من هناك . ولكن بدلاً من

أن آخذه الى المؤخرة أخذته الى المقدمة . والتحق وياه بخطوطنا . أما فيلو كور الذي كان في حالة سُعار ورضى ، في وقت معاً ، فقد وبخني ثم قال لي :

– والآن ليس لك إلا أن تمرّ به الى الضفة الأخرى من السد ليؤخذ الى مركز النجدة .

وهذا ما فعلت ، ولكنني طلبت هذه المرة الى جنديين مساعدتي ، لأن الفونسي كان ما يزال مغمى عليه وبلا حراك . لقد نجا من الهلاك ، ولكنه كان أضعف جداً من أن يلتحق بخطوطنا . ولم أره إلا بعد سبعة شهور بمستودع وجدة ، وكان ساعده جد متآكل ، وهو حزين لأنه أخطأ نهاية الحرب .

بعد بضعة أيام ، ٢٠ يناير ، اذا كانت ذاكرتي دقيقة ، هاجمنا سانتا كروس . وكانت معركة شديدة العسر ، على ارتفاع ١٦٠٠ متر . ولقد تداولت الأيدي بعض المواقع مرات عديدة . وكان خط العدو وخط الحلفاء على قاب قوسين الواحد من الآخر ، الى الحد الذي بات المرء فيه لا يعلم ، في النهاية ، أين كان الألمان وأين كان يعتصم جنودنا. أضف الى هذا، اشلاء الضباب الممتزجة هنا وهناك بقمة الجبل .

وذهبت الى الاتصال بالوحدة المجاورة ، فوصلت مظلاً بالضباب ، الى اقل من عشرة امتار من الالمان . ولحسن الحظ سمعت واحداً منهم يتحدث ، فتوقفت ثم رجعت على خطاي بسرعة . لم اكن اهتم بان انهي الحرب أسيراً . جرح النقيب فيلو كور في فخذه . ولم يكن يلزمنا اقل من خمسة رجال لانزاله الى التجويف الذي جرح فيه الفونسي وأخذه الى مركز النجدة .

ورغم ان النقيب كانت أصابته اقل خطورة من المساعد ، فانه كان يتألم كثيراً في كل حركة ضغط كنا نحدثها له . ولكنه لم يشتك ولو لمرة ولم يغب عن وعيه لحظة .

وفي سانتا كروس ، فيما اظن ، بدأت معنويات الالمان تنخفض . وقد أسرنا في مونتانو وفي سيلفا بعض الجنود . أما في سانتا كروس ، لأول مرة منذ بداية حملة إيطاليا ، فان وحدات برمتها قد استسلمت . ولست ادري كيف نفسر هذه الظاهرة اذا لم نفسرها بانه في حرب المواقع ، عندما يبقى جيشان عظيمان وجهاً لوجه امدأ جداً طويل ، فان احدهما ينتهي بفضل الأصرار وروح المثابرة ، الى التفوق على الآخر بسلطة لا تدفع . ويشعر المرء بهذه اللحظة حيث يشرع الخصم ، دون سابق انتظار ، يتخلى ، لا لاننا أنخنأناه ولكن لانه يشعر في نفسه بانه اضعف .

ومع ذلك فان الوحدة التي تواجهنا كانت ممتازة . كانت من البانزر Panzer ولكنها ، نظراً لطبيعة الارض التي تدور عليها المعارك كانت تقاتل بدون بانزر . ولم يكن لهم فيه الا كثير من المزايا . والحق ان خذلانهم لم يكن الا سحابة صيف . فقد استرد العدو انفاسه بعد سانتا كروس . ووقف تقدماً منا على موقع كان قد اختاره ونظمه لنا بشكل عجيب كاسينو .

عادت المتاعب من جديد . وكانت فرقتنا ترى جنودها وضباطها يذوبون ، وكانت وقتها تحت قيادة مرشح الزاسي يدعى (Z) كان يبدي قليلاً من الشجاعة عند الهجوم وكثيراً من الحقارة عند الراحة . لقد كانت لي الفرصة أن الاحظ اكثر من مرة ان افضل الضباط هم احسنهم ايضاً في المعارك بلاءً ، والوقوف تحت النيران هو المعيار الأكثر أماناً لمعرفة موقف رئيس من رجاله .

ان الذي يكون جباناً تحت الرصاص يكون ايضاً جباناً في علاقاته الانسانية بدون كرم وبدون عدالة . وهذا ما كانه (Z) . لقد كان يتفق له احياناً ان « يغيب » في لحظة الهجوم ، وعندما يعود الهدوء ويمر الخطر، لم يكن أحد غيره يلوح بحقوقه وشاراته؛ ولسوء الحظ كانت علاقاتي معه اكثر مما كنت اريد ، لاني كنت ، الى جانبه ، مساعد الفرقة .

ساعت الأمور عندما بعث الفرنسيون المقيمون باميركا الشمالية طرود الهدايا للفيلق الفرنسي بايطاليا بمناسبة رأس السنة . فلست ادري اي ضابط احق من المؤخرة تخيل ، وهو جالس بأناقة في حرارة مكتبه ، ان يحرم مذكرة ادارية توصي بان يقع توزيع الطرود في الجبهة على النحو التالي : طرد لكل فرنسي . وطرود لكل ثلاثة مغاربة ..

وحالما علمت بهذه المذكرة ، ذهبت لرؤية Z ووضّحت له بشدة الطابع البشع لمثل هذا التمييز ولاول وهلة اخذ الأمر من عل وقال انه يؤيد المذكرة . وزعم انه سيطبقها . فاغتظت وقلت له اشياء قاسية ، وذكرته ، فيما قلته له من كلمات جارحة ، يجنبه في المعارك ، وتركته ، من غير ان احييه ، مجنوناً من الغضب .

لقد كانت المذكرة غبية بقدر ما كان يسود بين الفرنسيين والمغاربة ما في الجبهة من تضامن رائع . كان الجميع يشعرون انهم متساوون امام الموت. إن رصاص العدو لم يكن يميّز بينهم ، وكذلك الصداقة . واذا كان Z لا يدرك هذا فان ذلك يظهر الى اي حد كان خالياً من الانسانية . وفي الواقع فان كل ما تمسك به من سخطي عليه ، هو ان رقيباً لم يحترمه . فكتب تقريراً طويلاً الى الرائد : وصفني فيه باني كنت « مهرجاً » وباني بكل تأكيد لا استأهل الوسام العسكري الذي نلته ...

بعد بضعة ايام ، جاءني ضابط ليقول لي ان النقيب فيلو كور طلب رؤيتي في المستشفى الذي يقيم فيه : فأخذت سيارة جيب وذهبت اليه فوراً: نزهة صغيرة على مسافة ٤٠٠ كلم هدأت أعصابي. وجدت النقيب في احسن الاحوال صحة ، وحالاً قصصت عليه الحادثة. قاعطاني الحق فيما يتعلق بالاصل واعادني الى وحدتي، بشوشاً، وبعد ثمانية ايام طار المرشح Z واحيل على فرقة القبارين: ولم يعد يقاتل بعد اليوم، وكل ما كان له هو ان يدفن قتلى المعارك. اما تقريره ضدي فقد 'قبر' هو أيضاً .

وعلى كل حال لم يذهب الحادث عبثاً . فقد حرك ما يقارب اجماع الضباط ضد المذكرة الطائشة ، واستمر توزيع الطرود الاميركية بعدل بين المحاربين .

لم اتناول طردي ، لاني لا أتناول عادة لحوم البقر المعلبة ، والفاصوليا ، ومعاجين الفواكه ، والمعلبات الاميركية ، لأن هذه الاطعمة المعلبة اصطناعية ويدون مذاق ، ولا تلائمني . لقد قررت ان آكل فقط الخبز والعسل؛ وكنت أجد ذلك دائماً حتى نهاية الحملة . لقد علقت على الدوام بمزامي دنتين ، احدهما معبأ ماء او قهوة والآخر عسلاً . وهذا العسل كان يزودني به الجندي الذي يخدمني . ولكن من الخجل ان اقول ذلك، كان عليّ بالاحرى ان اقول صديقي : لقد كان شاباً شلحياً^(١) لم يبلغ بعد التاسعة عشرة من عمره، طويلاً، وشديد المقاومة . لم يكن يتكلم الفرنسية ، اما العربية فكان يتكلمها بصعوبة بالغة . ولكن كانت له موهبة فذة : أنسى ذهبنا ، كان يعرف كيف يكتشف اجباح النحل . لقد رأيته اثناء العمل ، يتعرض للسع النحل ولكنه يواصل

(١) الشلح هو اسم يطلق على البرابرة من سكان المغرب الاقصى . - المترجم -

جمع الشهد بدون اضطراب . وفي الظاهر كانت اللدغات لا تؤثر فيه . وبفضله هو لم افتقد ولا لمرة واحدة غذائي الوحيد اثناء حملة ايطاليا .

في بداية العمليات كنت مسلحاً ببندقية اميركية « جراند » . كانت دقيقة ولكن جد ثقيلة . وبسرعة عوضتها ببندقية خفيفة ، هي الاخرى من صنع امريكي ، وليس لها أية مزية أخرى غير خفتها ، لأن أقل ذرة غبار تعطلها . كنت ارى انه امر اساسي ان اكون خفيفاً ، لأنني انتقل كثيراً لقيادة فرقتي ، ولاختيار مواقع الرماية ، واربط الاتصالات . وكنت احمل في حزامي ايضاً مسدساً سأعود للحديث عنه .

هذا ما كان عتادي اثناء الحملة الايطالية . سلاحان ودناتان : للقتال والعيش . كانت حياتي صعبة وبدون فراغ . كنت أقاتل في سبيل قضية عادلة . اعتقد اني كنت سعيداً، او بالاحرى كان يمكن ان اكون سعيداً، لو ان التفكير في الجزائر الشقية استطاع ان يفارقني لحظة .

بالنسبة لي ، كانت حرب المواقع هذه امام كاسينو اللحظة الاكثر امتحاناً في الحملة . ان يعيش الانسان في الثلج والوحل وان يكون بدون توقف هدفاً لقنابل المدفعية المعادية - ليس في ذلك شيء من المتعة ، فانه لم يبق من فيلقنا ، كما كان في البداية ، إلا الثلث . ثم ان هذا الثلث قد تألم كثيراً . ولم يفتأ عدد الجيش ينهار من جراء الجروح والاصابات الرئوية ، وصقيع الارجل . وكنت الوحيد الذي لم يغادر الواجهة ولا مرة واحدة . بيد اني أصبت بعرق النسا من النوم في الثلوج وكنت امشي بعرج واضح .

ولما عاد النقيب فيلو كور بيننا 'جرح من جديد . وعند عودته الى المستشفى طلب مني ان اقوم مقامه الى حين عودته . لانه كان يريد ان لا تضعف السرية .

لان القيادة كانت ، لتعويض المفقودين ، من الجرحى والقتلى ، تبعث لنا
برجال لا دراية لهم ابدأ بفنون القتال . وكان علينا ان نأخذهم على عاتقنا في
شروط حياة عصبية ، وهذا ما لم يكن سهلاً .

عاد النقيب فيلو كور من المستشفى على عجل لكي لا يحبط الهجوم الكبير
الذي كان قيد الإعداد . وهجمنا على كاسينو الساعة الحادية عشرة ليلاً من
الميسرة لكي نقطع امكانية الانسحاب على الالمان . لأن القيادة اكتشفت
نقطة الضعف عندهم : انهم لا يحبون الهجوم بالليل . ولا نحن ايضاً ،
ولكن الأمر كان جديراً بالتعب والأجهد لنرى مَفْنَمَ المفاجأة والفرع
الذي نسيبه للعدو .

سقطت كاسينو . وتتابع الهجوم . وكنا نتوغل بدون توقف وكانت هذه
هي اجمل لحظات الحملة . ولكن الالمان كانوا ما زالوا يدخرون لنا اكثر من
خدعة . كنا نقترّب من روما وننزل نحو السهل . وذات ليلة ، لم يعد يجد
هجومنا دونه الا مقاومة تافهة . ربما كان علينا ان نحترز ، ولكن بعد هذه
الشهور من الجلود ، كنا قد انتشيننا بتقدمنا . وفي الصباح مع شروق الشمس
وجدنا امامنا نموراً ، هي هذه المصفحات الكبيرة التي ظهرت في آخر لحظة
على قمة ارض نائنة واخذت ترمي خطوطنا تقريباً وجهاً لوجه بوابل من القذائف
ملأنا رعباً .

ولم يكن لنا من ملجأ الا الحفر التي احتفرتها القذائف . وقد رصدت
احدى هذه الحفر ، وانتظرت فجوة ، ووثبت بقوة اليها فسقطت على النقيب
فيلو كور الذي كان قد اختبأ فيها . كانت اولاً لحظة ذهول ثم ضحكنا ضحكا
متواصلاً ؛ وبعد التأمل لم استطع ان اعزو هذا الضحك لشيء إلا لانحسار
الخوف المفاجئ . وبعد كل شيء ففي خضم هذا الجحيم ما زال كلانا حياً .

لكن الحملة قد خابت . كان ذلك واضحاً ، لأننا لم نعد نسمع إلا طلق
البنادق . فقال لي النقيب :

« امش الى الامام وانظر ماذا هناك . هناك شيء ما قد اختل » .

وتقدمت فوجدت رئيس فرقة ، مرشحاً ، منحدراً من شمالي شرقي اسبانيا
قال لي :

— إن الأمر جد خطير ، الجنود فروا تاركين ال F. M. ^(١) .

فسألته : — قطع F. M. الثلاث ؟

فأجاب بإيماءة الرأس نعم ، وكنت احدى فيه . وهو منطرح ارضاً
وسألني :

— إلام ستؤول الحملة بدون ال F. M. ؟

قلت : « سأنظر في ذلك » .

وأخذت ازحف على البطن . لم تكن مواقع الطلق الا على عشرات
الامتار من المكان الذي وقفت فيه النمر . وكنت اتصيب عرقاً وانا اقترب
وحيداً مما كان مواقع طلقنا والذي لم يعد الآن الا منطقة حراماً نسفتها
القذائف . ومن حسن الحظ لم اظهر للعدو . ووجدت قطع ال F. M. الواحدة
بعد الاخرى وعدت بها الى خطوطنا . وبما اني كنت اكثر الوقت أزحف على
بطني فلم اكن استطيع ان اعود بأكثر من واحدة كل مرة . ولذا كان علي
ان أكرر الرحلة .

وبارتياح رأيت أمامي رأس المرشح الاسباني اللطيف . واتفقت معه على
كتم الحادث ، لاجتناب عقد مجلس حرب لجنود ال F. M. بجريمة التخلي عن

(١) F. M. تعني المدفع الرشاش .

- المترجم -

السلاح . اذ ان هجوم النمر كان جد عنيف وتكبدنا فيه خسائر فادحة .
وهذا عذرهم في الاستسلام للرعب .

وبينا كنت عائداً الى خطوطنا تقدم نحوي مغربي منادياً :

- رقيب ! صاحبك الشلحي مجروح . الآن أخذوه .

وركضت لأدركه . وعلى بعد ٢٠٠ متر من المكان تراءى لي في المحمل
متمدداً على بطنه . ولم يبدو لي ابداً اكثر منه طولاً كما في تلك اللحظة .

- « واش تحس ؟ » .

فأجابني وهو يرفع رأسه ويبتسم : - بسيطة .

وفي الواقع كان ظهره قد خطته شظية ، وكان في جرحه الفظيع تناثر
شظايا العظام . قلت :

- إشف بسرعة .

- الله يسمعك .

وانطلق به الحاملة . ولم يقطعوا إلا ١٠٠ متر حتى توقفوا من جديد
وناداني واحد منهم :

- رقيب ! انه يحب يكلمك .

وركضت اليه فقال لي :

- فكرت فيك .

واستدار بحذر على جنبه ، وسحب من تحته دنّ غسل ومده الي . وبقيت
لحظة صامتاً أمامه والدنّ باليد . ولكن الحاملة كانوا ممجّلين . فقلت له :

- ارجع بسرعة .

- سأعود .

وفعلاً عاد . فقد شفي في وقت جد قصير . ورفض فترة النقاهة كما كانوا

يفعلون جميعاً . والتحق بنا في الخط الأول حيث استكمل شفاءه في ساحات القتال .

وفي النهاية دخلنا « المدينة الخالدة » . وعكس ما أكده الحلفاء فيما بعد فان الفرنسيين هم الذين دخلوا روما قبل سوام .

وفيها لأول مرة اتصلت بالمقاومين الايطاليين . وأثر ذلك انطلقوا يقاتلون معنا في جنوب سيان . اريد هنا أن انسف ، مرة ، الى الأبد ، فكرة ان الايطالي انسان لا يبرهن على الشجاعة في القتال . انها فكرة خاطئة من الاساس إن الايطالي انسان داهية ، قليل التصديق . وهو لا ينخدع بالدعاية ولا يقبل ان يقاتل بدون هدف . ولكن اذا وجد في المعركة الهدف الذي تصور والذي يريد فانه على استعداد ليعطي حياته . والأنصار الذين كانوا يقاتلون معنا كانوا يعرفون جيداً ماذا يريدون : طرد الفاشية من بلادهم . ودون ان يكون لهم انضباط أو فاعلية جنودنا فانهم برهنوا على شجاعة عظيمة في اتمام المهام التي انيطت بهم .

بعد زمن قليل من احتلال روما مُنحتُ وسام الحرب . كنت قد حصلت منذ بداية الحملة على اربعة استحقاقات منها اثنان من نوع وسام الجيش وعلى قاعدة هذه الاستحقاقات الأربعة ، وايضاً مكافأة لقضية المدافع الرشاشة (فقد ذاعت رغبتي اني كنتها لكي ينجو الجنود من العقاب) منحت وسام الحرب . وأقيم احتفال عسكري مشهود قدم الجنرال ديفول خصيصاً لحضوره ، وكان هو الذي قلدني الوسام . لم يكن رجل الدولة العظيم وهو يملق وسام الحرب على صدري ويعانقني ، يعرف بان امامه الرجل الذي سيتقلد ، بعد ثمانية عشر عاماً ، مصائر الجمهورية الجزائرية المستقلة .

الفصل الثالث

العودة إلى الجزائر

بعد «سيان» استبدل الفيلق الخامس المغربي ووضع في الاحتياط للاسهام في احتلال فرنسا . وعندئذ حصلت بصورة استثنائية على رخصة لزيارة عائلتي في مغنيه . ولما انتهت رخصتي التحقت بمستودع وجدة حيث وجدت بكل سرور المساعد الفونسي الذي قال لي على الفور :

- لن أتركك تسافر . انني احتاجك لتدريب «الزرق» .

وفي وجدة انتهت اليّ اصداء احداث ١٩٤٥^(١) . لقد تأثرت بعمق بالقمع الوحشي الذي عقب الثورة . وكان هذا القمع يريد ان يقول ، بكل وضوح ، ان الاستعمار كان مصمّماً ، بعد نهاية الحرب ، على ان لا يتخلى للجماهير الجزائرية عن شيء على الاطلاق ، وعلى ان يحتفظ بتسلطه عليها بالارهاب .

كنت أتأمل العبرة من هذا الدرس المرير عندما كان رؤسائي يقترحون

(١) يشير بن بلة هنا لاحداث ٨ ماي (ايار) ٤٥ التي خرج منها الشعب الجزائري محتفلاً بهزيمة المحور الفاشي - النازي وحاملاً العلم الجزائري ، وكان رد الاستعماريين هو تنظيم المجازر بسطيف وبعض مدن الشرق الجزائري حيث سقط ٤٥ ألف شهيد - المترجم - .

علي البقاء بالجيش الفرنسي . كانوا يريدون ارسالي الى مدرسة للضباط .
ومعي ملاحظاتي واستحقاقي العسكرية . وبعد زمن قصير أخرج برتبة
ملازم . ورفضت متعللاً بوضعيتي العائلية وبضرورة عودتي الى مغنیه للاهتمام
بأمي وشقيقي . ولكن احداث جهة قسنطينة في الحقيقة هي التي لعبت في
رفضني دوراً حاسماً . لقد احسست ان الاختيار بالنسبة لي قد تم . فالقمع
الذي دارت رحاه في مدينة سطيف حفر خندقاً لا يعبر بين المجموعتين
الأوروبية والجزائرية . كنت اشعر بأنه يجب عليّ ازاء مجموعتي ان أحاول
بكل وسيلة في مستطاعي ان احسن مصيرها وان اجعل الظلم الذي كانت
ضحيته ينتهي .

حالما حلت بمغنیه طلب مني ابناء وطني ان اسجل اسمي بقائمة الانتخابات
البلدية التي كانوا يريدون تقديمها في الانتخابات . هذه القائمة لم تكن منسجمة ،
ولكنها كانت تتركب ، في مجموعها ، من جزائريين ذوي نيات طيبة .
وقبلت ان اشترك فيها .

كان منتخبو الدرجة الثانية (وبهذا التعبير اللطيف ، يُخصّص الجزائريون)
والأوروبيون يشكلون ، بطبيعة الحال ، الدرجة الاولى . والأوروبيون كانوا
هم الأولين ، وكانوا عازمين تماماً على ان يبقوا الأولين . لأن قانون الدرجتين
هذا لم يكن له من هدف إلا تنقيح الانتخابات العامة : وهكذا كان عشرة
ملايين جزائري ينتخبون في كل الجزائر ثلث المستشارين البلديين ، بينما مليون
أوروبي كانوا ينتخبون الثلثين . وكان منتخبو الدرجة الثانية في كل مقاطعة
أقلية بطبيعتهم ، وقد خفّضوا لدور « الجزائريين الذين تحت الطلب » ،

شهود سلبين، ضعفاء ومستسلمين لادارة الدرجة الأولى، «بني-وي-وي»^(١)،
دائمين مرصودين ليقدموا للنظام الاستعماري ضمانا تمثيلية ديموقراطية هزلية .
واعترف باني أشعر الآن بالسخرية العميقة عندما أسمع نفس السياسيين
الفرنسيين الذين ابتدعوا مؤسسة الدرجتين العجيبة يأخذون اليوم على الجزائر
الجديدة أنها لم تكن ديموقراطية بالقدر الكافي ... الديموقراطية الحقيقية
توجد عندنا في القاعدة: انها تسمى التسيير الذاتي. اما الأخرى - ديموقراطية
القوانين الانتخابية المصنوعة حسب الطلب ، والتسويات الانتخابية
Apparentements بين الدرجتين ، والتوزيع الجبلي للدوائر الانتخابية -
فاننا ندعها لهؤلاء السادة ...

منذ الجلسة الأولى للمجلس البلدي بمغنية ، كان واضحاً بان منتخبي
الدرجة الأولى ، الأقوياء بأغليبتهم العضوية ، اذا جاز القول ، لا يريدون
« تفويض » أية مهمة لمنتخبي الدرجة الثانية. وكان هذا يعني رفض مشاركتنا
في ادارة المدينة الصغيرة ، ومنعنا ، بالنتيجة من ان نكون نافعين للذين
انتخبونا . وعندئذ استقال جميع منتخبي الدرجة الثانية ، وفورياً أعيد
انتخابهم من منتخبي الدرجة الثانية . جلسة جديدة في المجلس البلدي وطلب
جديد لتفويض المهام . فرفض جديد فاستقالة جديدة جماعية . فانتخابات
جديدة . وهكذا عدنا ثلاث مرات متواليات امام المنتخبين .

وفي كل مرة كان عداء الدرجة الاولى لنا - وبالاخص لشخصي ، اذ كانوا

(١) عبارة شائعة عند الجماهير في المغرب العربي تتركب من لفظ عربي : بني ولفظتين
فرنسيتين : وي - وي بمعنى نعم - نعم . ويشار بها لفئة السياسيين الرجعيين الذين لا يسمعون
المستعمرين الا الطبل والزمر - المترجم - .

يعتبرونني رأس الفتنة والعنصر الاكثر تصلباً - يزداد . لان منتخبي الدرجة الاولى لا يستطيعون بمفردهم لا الادارة ولا التصويت على الميزانية . ورغم انهم اكثرية فقد شلهم غيابنا . ونحن الاقلية لم يكن لنا اي حق الا ان نقول : نعم ، ولم تكن لنا طريقة اخرى لقول : لا . الا ان نستقيل . لم يكن امامنا من خيار الا قبول كل شيء او رفض كل شيء .

وأحس شيخ المدينة السيد جبرود بكل عبث الوضعية . لقد كان اشتراكياً من الحزب الاشتراكي الفرنسي (حزب غي موليه) لكن الاشتراكية من هذا النوع تذكرنا ، نحن الجزائريين ، مع الاسف باوجه جد نحيسة ... كان جبرود رجلاً شجاعاً ، ولكن لكي نحصل على تفويض ببعض المهام من هذا « الاشتراكي » كان لا بد من ثلاثة انتخابات للقادة . وفي الثالثة رضح . او بالاحرى بيّنت خدعة . بما اننا كنا نريد « مهام » حسناً ، فانه سيعطينا ايهاا وحتى ذلك الحين كان مقتنعاً ككل فرنسي الجزائري « باننا لا نعرف عمل شيء . » وباننا « لن نستطيع الاستغناء عنهم » لقد كان يفكر بتمجيذنا تحت اثقال العمل والمسؤوليات ولكن يا للخيبة ! لقد قبلنا كل المهام وانكن لم نعمل .

وحصلت على التموين والبطاقات ، وفي ذلك العهد كانت مهمتي تشكل الجهاز الجوهري للادارة البلدية ، لان كل شيء كان ما يزال مقسماً . بالتأكيد تقسيط المعاش لم يكن يضايق الاغنياء . لان النقود تشتري كل شيء ولكن الفقراء لم يكن لهم الا تذاكر البطاقات ، وبدون تذاكر لم يكونوا قادرين على الحصول على شيء . لقد كانت هذه هي حالة السواد من الفلاحين الفقراء الذين هجروا الريف وتدفقوا على المدن ، على امل ان يحصلوا على قطعة خبز ، وبعض حبات التمر ، وحفنة من الدقيق ، ولم يجدوا مساكن في مغنية

فمسكروا في المغاور على امتداد الوادي ، في حالة من الاملاق والعري لا توصف . والى المجاعة اضيفت حمى التيفوس التي كانت تواصل فتكها بالجمهير النافضة التغذية . في مدينة صغيرة مثل مغنيه يسكنها اقل من ١٥,٠٠٠ ساكن كانت الحمى تبت عشرة اشخاص كل يوم . اما عالم البشر الذين كانوا يموتون في المغاور فقد كان مجمولاً عندنا . لقد وقّعت بدون تردد لهؤلاء البائسين آلافاً من بطاقات التموين التي لم يكن من حقي توقيعها . لم ابال بذلك كثيراً . لانه اذا كان القانون يقول : لا . فان الافواه الجائعة كانت امامي .

كنت اعمل من الصباح الى الليل . اذهب لارى الناس في مساكنهم . واهتم بمشاكلهم . وبعلم الله كم كانت كثيرة ! ولكن كنت اعمل ، وكان لدي الانطباع بانني مفيد . لقد كانت هذه الفترة حافزة لي بشكل فائق . كنت في صحة بدنية ممتازة ، وكانت معنوياتي في اوجها ، استطيع ان اقول اني كنت ما زلت أحياء على حماس كاسينو . في البداية كانت المشادات مع شيخ البلدية بلا حساب ، ولكنه ، كما قلت ، كان رجلاً شجاعاً . ولقد انتهى ، من مرافقتنا ومشاهدتنا نعمل ، الى تجاوز مسبقاته ، وتوصلنا الى تفاهم . إن المتاعب لم تكن تأتي منه ولكن من السلطة العليا .

ولأنني لم اكن مستشاراً بالمجلس البلدي وحسب ، ولكن مناضل يحرص حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، والسمعة التي اعطانيها عملي اليومي لفائدة مواطني . جعلت ، في شهور قليلة ، عدد المنخرطين في الحزب يتضاعف وغدت مغنيه اقطاعاً للحزب . وهذا ما لم يكن يغفره لي لا المتصرف الفرنسي ولا أخدمه الجزائريون الباشا آغا والقائد . -

ذات يوم ، جاءني احد اصهاري ، القاطن بمغنيه ، مهموماً ، وقال لي :

– احمد ! ان فلاناً احتل مزرعتك وزعم انها له .

قلت له : – سأخرجه منها في الحال .

فعاد صهري وقال ، رافعاً يده اليمنى :

– احترس ، انني اشعر وكأنهم نصبوا لك فخاً. إن هذا الرجل في حد ذاته ليس خطيراً فهو بدون ساق . ولكن اقرباءه لصوص وقتلة ، لم يعودوا إلا منذ زمن قليل من كيان^(١) . الله يحفظك !

ذهبت لأرى الرجل الكسيح ، لقد كان في الواقع يحتل منزلي ، وقد استقبلني ، كما لو كان في منزله الخاص ، مغفوراً بزوجتيه . وقصّ عليّ قصة طويلة جد مشوشة لاثبات ان مزرعتي كانت ملكه . بالطبع لم تكن له اية وثيقة لدعم أقواله . ولكن ، مع الأسف ، انا ايضاً لم تكن لي ايضاً وثائق . ارض السكان الاهليين ، التي يعود حوزها الى جزائر ما قبل الاحتلال ، لم تكن لها رسوم . إن الحوز الطويل هو وحده سند الملكية : إن مزرعتي كانت لي لان والدي فلحها ، وورثها عن ابيه وهلمّ جراً ... ومن هنا تأتي المنازعات العديدة ، ذلك انه كان دائماً من السهل لرجل سيء النية ان يدعي بان جد جده 'نهبت أملاكه من طرف جد جدك في نزاع على الارث . لقد كانت الادارة الاستعمارية بالطبع تلعب دوراً في هذه النزاعات واحياناً هي التي تثيرها ، لتحض – ليزانديجان – « الطبيين » على حساب ليزانديجان « السيثين » ...

بعد التأمل بدا لي انني صُنفت في عداد هؤلاء الآخرين . لان الرجل

(١) مكان في جزيرة غيان ، المستعمرة الفرنسية ، كانت المحاكم في عهد الاحتلال تنفي اليه المجرمين الخطرين – المترجم – .

الكسيح ، رغم انه كان يموت من الخوف بحضوري ، كان يبرهن ، مع ذلك ، على ثقة بالنفس . لم يكن مصدرها فقط ، فيما خيل الي ، اقرباؤه الذين عادوا من و كيان ، .

و كنت كلما ازددت استماعاً اليه ازددت اقتناعاً بان صهري كان على حق ، ان القضية من اساسها قد دبرت من الادارة . اذا قبلت الوضعية ، فاني أُجرّد من ارضي ويسقط اعتباري عند مواطني^(١) . واذا تصرفت بعنف ، فان اقرباء الكسيح حاضرون لتصفيقي جسدياً . وسوف يحاكمونهم صورياً . فلا شيء اقفه من قتل « انديجان » من طرف « انديجان » آخر ! وسيجدون شهوداً ليؤكدوا ، باغلظ الايمان ، ان القاتل كان في حالة دفاع شرعي .

فكرت في كل هذا وانا استمع الى الكسيح ، وفجأة استعدت كامل هدوئي . ومن الغريب اني لم اعد اذكر اسمه . ولكني ما زلت اراه بسحنته المذعورة والمتشاحخة في نفس الوقت ، ووراءه زوجته ، اللتان كانتا اقرب للموت منها للحياة . ذلك لاني كنت قد رفعت صوتي ، بالاخص ، في البداية وبعد لحظة صمت ، نظرت للرجل ثم قلت له : « انتظر ، سأهتّم بك » . واستدردت للخروج . واذكر اني وانا اصفق الباب ورائي تساءلت : لماذا يحتاج ، وهو كسيح ، لامرأتين ؟

استعملت كل الوسائل القانونية لاسترجاع مزرعتي . فاصطدمت بحدار . وكان آخر مساعي ان طلبت مقابلة المتصرف الفرنسي ، والطريقة التي استقبلني بها لم تدع لي اي امل . لقد كان يشعر بالانتصار . وعيناه تققدحان تهكماً . ولم يفارق في اي لحظة هذا الموقف الساخر ، حتى عندما ذكرته

(١) في المغرب العربي تخطى الارض ، بالاخص من الفلاحين ، بقية متعالية . والتفريط فيها يعادل في المفهوم الشعبي ، للارض والشرف ، التفريط في الزوجة .
المرجع

بخدماتي في الحرب . كان جلياً ان وسامي* الحرب ، والاستحقاقات الاربعة ،
والوسام العسكري ، لا شيء من ذلك كله كان له حساب عنده . شيء واحد
كان همه هو موقفه في مغنيه والتقدم الذي حصل عليه حزب « حركة
انتصار الحريات الديمقراطية » . وعندما قلت له وانا أهمّ بالانصراف :

– ولكن في النهاية ، الى اين تريد ان تصل بذلك ايها السيد المتصرف ؟
ردّ علي بنفس اللهجة التهكية :
– سترون ذلك جلياً .

ثم اضاف : – تعتقدون انكم جد ماكرين ، بن بلّته ، ولكن سنبرهن لكم
اننا اكثر منكم مكرراً ..
وادركت عندما غادرته اني خسرت مزرعتي .

عندما عدت الى مغنيه فكرت في الوضعية تم قررت ان انتقل الى الهجوم .
وذات صباح استصحبت عربية شحن فارغة الى المزرعة ، ثم ، تقدمت نحو
الدار ، والمسدس بيدي ، وفتحت الباب وقلت للكسيح بلهجة آمرة :
– اني اعطيك عشر دقائق لترحل . احمل معك أثاثك وامراتيك .

ولم يكن وحيداً ! فقد كان معه احد اقربائه العائدين من كيان ، ولكن
الهجوم باغتتها ، فلم يردّ الفعل . ومرّ كل شيء بسلام . اخذوا الاسمال .
وادوات الطبخ ، وركبت الزوجتان والكسيح وقريبه في مؤخرة العربية مع
الاثاث ، وانطلقت بهم العربية وبقيت انا مولى الارض .
هذا الانتصار السهل تركني اتوقع هجوماً مضاداً .

وفعلاً بعد ثلاثة ايام جاء الهجوم . كنت نائماً بالبيت عندما سمعت في
منتصف الليل ضجيجاً . كانوا يرمون نوافذي بالحجر ولم اتحرك . والى الحجر

انضافت الشتائم . فلم أردت ايضاً . وطوال الليل كانت الحجارة والتحدي يتعاقبان .

كانت خطتهم واضحة : احدهم كان يرميني بالحجارة ، بينما الآخر ، في كمين ، يسدد سلاحه الى بابي ، مستعداً للإطلاق عندما اظهر ، مندفعاً ، على العتبة .

انتظرت النهار . كنت أريد ان اتمكن من الرؤية الواضحة عند خروجي . وأعددت سلاحي . وكان مسدساً عديداً الطلق من نوع ب ٣٨ ، ذا انبوب جد طويل يستطيع ان يصيب بدقة متناهية على بعد ٢٠٠ متر . عندما طردت الكسيح من غرفتي كانت بيدي مسدس اصغر ٦,٣٦ . وربما فكر قريبه ان ذلك كان هو سلاحي الوحيد . ونتيجة لذلك فقد كمنوا على بعد نحو ٦٠ متراً من داري . وهو مدى مرمى بنادقهم « Chassepots » ، ولكنه مدى لا يطوله السلاح الذي كانوا يظنون انه سلاحني الوحيد . وعندما اخرج كانوا يفكرون انهم سيكونون بمنجى من رصاصي ، بينما أكون هدفاً لرصاصهم . وكما يرى المرء ان هؤلاء القتل كان عندهم شيء من التجربة في نصب الكائن .

تواصل هطول الشتائم والحجارة . وظللت في الظلام جالساً على كرسي ، جامداً وصامتاً وبيدي المسدس ب ٣٨ . واذا كان الانتظار ابتلاءً لي فقد كنت أعرف ، بصفتي شاركت في كاسينو ، بانه كان ابتلاءً لهم ايضاً .

مع طلوع الفجر انتقلت الى الهجوم . فتحت الباب بغتة ، ووثبت ثم انطرحت ارضاً . وأزّت رصاصتان فوق رأسي دون ان تصيباني . وبذلك كشفنا لي الموضع الذي أطلقت منه النار ، فقمتم ثم تقدمت في اتجاهه .

وأطلقت شحنة الرصاص Chargeur برمتها مرة واحدة . وانبطحت من جديد على الارض . لا شك انهم بوغتوا على نحو مرعب ، إذ أنهم كانوا يعتقدون اني مسلح بـ ٦,٣٦ ، فاذا هم يرون وابلا من الرصاص يصل اليهم . أدخلت شحنة رصاص جديدة في سلاحي ، وقفزت من جديد . أطلقت النار ثم نمت على الارض . سمعت صراخاً ووقع أقدام راكضة . وأدركت انهم كانوا يفرون . وانطلقت في أثرهم . لم أكن أريد ان اترك لهم الوقت لشحن بنادقهم من جديد . ولكنهم كانوا يهربون بدون تفكير في العودة . ورأيت دماً على دغل . لا شك اني جرحت واحداً منهم . ووقفت لاهثاً لأنني كنت قد أصبت بالوخم Paludisme وكنت لا أستطيع مواصلة العَدُو .

عندئذ نزلت الى القرية لطمأنة عائلتي وأصدقائي . وأثناء الطريق رأيت « القائد » (١) . كان بديناً ومنافقاً . ابتسم لي من بعيد كمن يتحجب لي ، وحياتي ثم سألني عما حصل ، بينما كان يسترق النظر ، وهو بالغ الجزع ، للسدس بـ ٣٨ الذي كنت ما زلت محتفظاً به في يدي . إن حضوره ، وتصنعه لموقف الحوار المخلص ، وأسئلته المريبة أتمت اقتناعي : لقد كان هو على اتفاق مع المتصرف الفرنسي ، الذي دبر المكيدة . قلت له ذلك في عبارات شديدة لأنني كنت ما زلت في حرارة المعركة . وأسماء « الخائن » و « المباع » كانت ألطف الأسماء التي سميتها بها . وكان يشعر بأنه وحيد معي في هذا الطريق . ولم يحاول حتى أن ينكر التهمة . لقد كان يتلقى شتائم ، مصفراً ، ووجنتاه ترتعشان ، وبدون أية كرامة ، ولم يجرؤ حتى على رفع عينيه .

(١) اسم يطلق على نوع من الموظفين الاهلين العملاء في الجزائر وتونس والمغرب .

- المترجم -

وفي طريقي الى مغنية ، أمعنت التفكير. لقد كنت منتصراً ولكنه إنتصار غالي الثمن . لقد جرحت رجلاً : وهذا سبب كافٍ لاعتقالي والقائي في السجن . قررت إذن أن أغادر المكان على التو . وبمبادرة مغنية خسرت ملكي ، ولكنني احتفظت بملك آخر أؤمن : حريقي . وكنت أحتاج لهذه الحرية لخدمة حزبي وقضية الاستقلال .

وصلت الجزائر العاصمة وغيرت اسمي . وابتداء من هذا التاريخ ١٩٤٧ ، أصبحت مناضلاً سرياً . وظلت كذلك الى يوم اعتقالي .

تحت ضغط الأحداث أصبحت حركة انتصار الحريات الديمقراطية في عنفوان الأزمة ، وكان الفراق يتضح أكثر فأكثر بين قيادة الحزب ومناضلي القاعدة الأكثر تصميماً وعزماً. وهؤلاء فرضوا على القيادة إنشاء منظمة سرية أنيطت مسؤولية الإشراف عليها بي . وكنا نسميها المنظمة الخاصة L'organisation Spéciale . وقد أصبحت في النهاية حزباً داخل الحزب ، وكانت أهدافها كما كانت روحها تختلف عن أهداف مصالي^(١) وروحه . وهذا الأخير في الواقع كان ينخرط أكثر فأكثر في الطريق الانتخابي . وكان يظن انه بفضل الانتخابات ستتطور الأوضاع ونصل الى ان نسمع صوتنا ، والى ان نتزع شيئاً فشيئاً تنازلات من السلطة الاستعمارية . وكنت ، ككل مناضلي المنظمة الخاصة الشبان ، لا أرى في هذا المنظور إلا الأوهام . لقد كنا نتعرق للعمل ، لأن حوادث سطيف كانت قد اقنعتنا بأن المشكل

(١) مصالي الحاج ، رئيس الحزب ، الذي كان عداؤه للعنف الثوري قد انتهى به الى الخيانة . يرمز على نحو كثيف ، صارخ وملوس ، لإفلاس القيادات البورجوازية « الوطنية » في قيادة حتى الثورة الوطنية ضد الاستعمار — المترجم — .

سيطرح نفسه عاجلاً أو آجلاً في صينغ القوة والعنف . وانه ينبغي علينا ان نحضر أنفسنا لذلك .

وان الانتخابات المزورة التي أشرف عليها « الاشتراكي ، نايجلاند Naegelen أكدت وجهة نظرنا . أبدأ لم 'تمثل في الحياة تمثيلية هزلية لاقتراح ديموقراطي أكثر منها وقاحة . وسياسة القمع التي تلتها أكملت تنويرنا . ومن الممكن القول ان الادارة الاستعمارية قصدت من تنازلهما الشكلي يجعل الجزائريين يقرعون ، ومن العناد الذي تكلفته لتزوير الانتخابات الاضرار بهم . ان كل ما يستطيع بيروقراطي استعماري ان يبتدعه من حقارات قد استعمل ضد اخواننا . لقد أغلقوا المقاهي العربية . وحرروا مخالقات ضد الفلاحين الذين يقودون حميرهم في الجانب الأيسر من الطريق ... هذه التأكيدات الصغيرة التي كانت تعاد وتضاعف خلقت جواً مقيناً . لقد كان هدفها ، بكل وضوح ، الاقتصاص منا جزاء على « ادعائنا » ، وبالفعل كان لنا ادعاء مجحف ولا يقبل الغفران ، هو رغبتنا في الاقتراح ، حتى لو كان ذلك في انتخابات مزورة . لقد أصابنا من هذا الاقتراح المزيف ما يسمى في الاصطلاح العسكري باكتشاف الانسان قدر نفسه Une Reprise en Main . وهذا الاكتشاف كان قاسياً ومضبوطاً في وقت معاً ، ر.ب.صوداً لإفهام - لانديجان - مرة وإلى الأبد ، بان « يحتفظ بمكانته » : الأخيرة في الأمة .

لقد كان من اختصاصي ان اجوب البلاد من قرية الى اخرى ، وازور المناضلين واحاول اقناع الانصار بالالتحاق بنا . وهذه التنقلات كانت سرية . لم اكن انزل ابدأ في فندق ، بل دائماً عند مواطن . ولا ابدو الا قليلاً جداً . لقد وجدت عند الفلاحين تفكيراً قريباً جداً من تفكيري . ولما كانوا يجهلون وجود المنظمة الخاصة ، فانهم كانوا يحكون على عمل حركة انتصار الحريات

الديموقراطية من خلال خطب قادتها وكانوا قد قرفوا منها .

ذات يوم قال لي فلاح : « اسمع ، يا ابني ، هل تعلم ماذا يقع عندما تعرف الادارة ان واحداً منا عضو في حركة انتصار الحريات الديمقراطية ؟ انها ترسل اليه رجال الدرك « الجندرمة » فيخرجونه من داره ، بعد ان يضربوه ويهينوه امام زوجته ، ويرمونه في السجن بلا محاكمة . وعندما يخرج منه يضطهده القائد والباشا آغا . هذا هو النظام . اننا مسحقون ، معصرون ، ومطحونون . وبعد هذا ، يتحدث الحزب عن الانتخابات . ماذا سيعملون بالانتخابات ؟ ليذهبوا يتبخثرون عند الفرنسيين ؟ وليدخلوا في بلدياتهم ، وبمجالسهم العامة ، وبرلماناتهم ؟ والى اين سيقودنا هذا ؟ الى تقدمات صغيرة ، نعم ، بعد قرن ! ولكن بعد قرن سنكون جميعاً قد متنا لا ، يا ابني ، لم نعد نريد ان نسمع الحديث عن الانتخابات ! ان ما يلزمنا اليوم هو البنادق » .

هذه اللغة كنا نسمعها في كل مكان ، وبدورنا لم نقصّر في إسماعها ، بكل فظاظه ، لقادة الحزب ، ولكن عوت ان ننجح في انتزاعهم من الانتظارية Attentisme . ان افضل تعريف له اقفهم هو الهرب . كانوا يتوارون امام الاختيارات الضرورية . وكانت الثورة المسلحة ضد النظام الاستعماري تخيفهم وكانت ثورة الجماهير تخيفهم اكثر . كانوا يرجئون دائماً للمستقبل القرارات التي لا مناص منها . ويعتصمون في انتظار ذلك ، بالانتخابية L'électoratisme الزائفة . كما لو كانت الانتخابات ما زالت جدية ، او جدية السلطة التي تعطيها المنتخبين ! ولكن الاطباع الانتخابية للحزب ، اذا ووجهت بالسحق العام ، والذي لا أمل فيه ، ضد شعبنا ، فانها كانت مجرد أوهام .

إن القادة لم يكونوا حساسين إلا لمظهر واحد من نفور الجماهير منهم :
فالانخراطات بالحزب كانت قد توقفت . والاشتراكات^(١) Les Cotisations
لم تعد تدخل . ذلك ان الذين كانوا يدفعون ، والذين يضحون من أجل أن
يحيا حزب ، هم دائماً ولا يتغيرون : المتواضعون ، والفقراء ، والفلاحون ،
وهؤلاء كانوا يحجروننا اكثر فأكثر. ما زلت أذكر أن مالية الحزب انخفضت
الى الدرك الأسفل حتى أننا كنا نلقى صعوبة في دفع أجور الموظفين الدائمين
بالحزب .

انتهى المناضلون ، الذين حزت في نفوسهم وضعية جد منكوبة ، الى ان
يرغوا مصالي وعصابته عام ١٩٤٩ على عقد مؤتمر للحزب . وبسخرية تاريخية
مدهشة عقد المؤتمر في الجهة التي كان يسيطر عليها الباشا بوعلام^(٢) .

ونزلنا ضيوفاً على المسمى جيلالي الذي استقبلنا في ضيعته بعز الدين .
وجيلالي هذا خان ، فيما بعد ، الحزب ، وأصبح قوادة للبوليس تحت اسم
خابوس . ولكن في ذلك العهد ، لم يكن بعد قد انخرط في طريق النذالة .
كنا حوالي ستين ممثلاً جاءوا من أنحاء الجزائر ، ومنذ الجلسة الأولى بدا
واضحاً بسرعة ان انتظارية مصالي ورفاقه ستألب عليها الأغلبية . ان
التاريخ تكررراً يجري . الذين كانوا يؤلفون هذه الأقلية ، وهم محافظون
بغريزتهم ، وانتهازيون بطبعهم ، وغير متأكدين من شيء على الإطلاق ، كانوا
في ١٩٤٩ يريدون « البقاء في الشرعية » وتجميد الحزب في الانتخابية الزائفة ،

(١) الاشتراكات مستعملة في المغرب العربي كله ويقصد بها المبلغ التقدي الذي يدفعه دورياً
وبانتظام المنخرط بمتظمة حزبية او نقابية الخ ..
- المترجم -

(٢) اقطاعي خائن . تزعم ، اثناء حزب التحرير ، الثورة المعاكسة السياسية . وما زال
الى وقت قريب : في كتاباته ، ينادي بالجزائر الفرنسية .
- المترجم -

أجدهم اليوم أيضاً في الجزائر المستقلة ، مناهضين لكل الاجراءات الثورية التي تتخذها حكومتي ... انهم دائماً نفس النوعية : شديدو الفصاحة ولكنهم ايضاً مصممون على عدم التحرك .

في عام ١٩٤٩ اتخذ المؤتمر بدونهم وضدهم قرارات خطيرة . فقرر انه يجب على الحزب ان يضع على ذمة المنظمة الخاصة الاساسي من مالهته . ولكي يتأكد المؤتمر من عدم ابقاء هذا الاجراء حبراً على ورق ، فقد عينني مسؤولاً عن التنظيم السياسي للحزب ، وفي الوقت نفسه ، مسؤولاً عن المنظمة الخاصة .

لقد دقت ساعة العمل . كان هناك صنف من الاشخاص العديمي الضمير الذين ضايقوا ، عهدئذ ، دعوتنا . كانوا عصابات انتدبهم الباشا آغاوات والقياد ليُبقوا تحت الارهاب النواحي التي يتصرفون فيها . واكثر هذه العصابات شهرة كانت عصابة الباشا آغا آية علي بجهة القبائل . كان هؤلاء اللصوص اشقياء من كبار قطاع الطرق ، وكانوا ينهبون ويقتلون بدون اي قصاص على الاطلاق . وهؤلاء القتلة كانوا يتدخلون ، لتصفية مناضليننا ، في كل الحالات التي لا تريد فيها الادارة ان تلوث يديها ، حسب التكنيك الذي اتخذ ضدي انا نفسي بمغنيه ، والذي سبق ان تحدثت عنه .

وقررت المنظمة الخاصة التي خرجت من مؤتمر ١٩٤٩ مدعومة واكثر قوة ان تطارد هؤلاء الاشقياء ، وحصلت ، لا بغير صعوبة ، من قيادة الحزب على الاذن بشن هجوم مضاد عليهم . لقد كانت عملية بوليسية عسيرة ولكنها ضرورية . غيّرت بعض الشيء من جو الجزائر .

اذا كانت ذاكرتي دقيقة ، فان المنظمة قررت في ذات الوقت تهديم التمثال الذي اقامته السلطات الاستعمارية لذكرى الامير عبد القادر . وقد بدا لنا

اقدام الاستعمار اذ ذاك على التظاهر بصدقة البطل الذي دافع عن استقلال الجزائر ضد غزاتها ، طوال خمسة عشر عاماً ، بدا لنا كمحاولة لتدريس ذكرى الامير العظيم . ولم ننجح تماماً في العملية ، ولكن محاولتنا مع ذلك اسهمت ، على نطاق واسع ، في افهام الرأي العام مقاصد سلطات الاحتلال .

بيد ان المتاعب المالية للحزب واصلت شل جهودنا ، وكان المناضلون الشبان في المنظمة الخاصة مصممين ، مهما تكن التكاليف ، على الخروج من هذه الوضعية . لاننا كنا بدون مصالح خاصة ، لم يكن عندنا ازاء النقود تلك الحرمة البورجوازية المعترة التي كانت عند قادتنا ، الذين كنا نقول لهم :

« اننا لا نعدم نقوداً في الجزائر ، وانما يجب ان نأخذها حيثما توجد ، في البريد ، او في البنوك . لنكن منطقيين مع انفسنا . اذا كنا على استعداد للتضحية بحياتنا في هجوم عنيف ضد المحتل ، فلا ينبغي ان نتخثر احتراماً امام خزائن ماله . »

وانتهى القادة على مضض ، بقبول مشروعنا بعد ان برأوا انفسهم سلفاً من كل مسؤولية .

هجمنا اولاً على بريد وهران . كنا نفكر ، على ضوء معلوماتنا الدقيقة ، اننا سنستولي على ثلاثين مليون فرنك ، كان يمكن ان تملأ فجأة خزانة الحزب ، وتمكننا من شراء السلاح . وفي الواقع كانت الغنيمة اقل اهمية بكثير مما كنا نقدر .

ولقد نظم الهجوم بكثير من العناية . ولكي نحول شكوك البوليس عن مناضليننا ، قررنا ان نعطي للقضية هيئة عملية اغتصاب مسلح ، Hold-up ، نظمها بييرو المجنون Pierro-le-fou ، الذي كانت « مآثره » في ذلك العهد

تملأ الصحف . فاخترنا كمنفذين للعملية جزائريين شُقرأ ، وكسونام على النمط الاوروبي ، وأمرناهم بان يتحدثوا باللهجة الباريسية .

انطلقت الحيلة . وبدأت الصحافة بالاعتراف بان الهجوم كان على طريقة ببيرو المجهنون ولم تخفِ اعجابها من ان اللص قد اختار افريقيا الشمالية كمسرح جديد لعملياته . ولكن الحظ لم يدم . فان تلاقياً لا يصدق لصدف صغيرة قد لعب ضدنا .

لقد استعمل المنفذون في حمل الاوراق المالية حقبة جد قديمة . وفي عجلة الفرار ، اشتبكت احدى رُزَّتِيها مع القفل . وحين انتزعت بعنف سقطت قطعة منها على مداس النعال في سيارة « تراكسون » التي استعملوها . وهذه القطعة رغم انها متناهية الصغر لم تفلت من الباحثين الذين جمعوها كوسيلة اثبات . بيد ان اي معلّم جدي لم يظهر . ومرّ زمن ، والتحقيق يدور حول نفسه . الى ان احيل احد ضباط الشرطة القضائية ، الذي كان قد شارك في البحث ، على الاستعلامات العامة . وهذا الضابط بينما كان يفتش منزل احد مناضلي حزبنا ، رأى فيه حقبة راقنة . وقرر أخذها لاستعماله الشخصي . هذا النهب الصغير كان له بالنسبة لنا نتائج خطيرة لانه عندما وصل الى منزله وجد صعوبة في فتح الحقبة ، وقد نظر فيها عن كثب فوجد ان قطعة من الرزّة كانت مفقودة . وعندئذ تذكر وسيلة الاثبات الصغيرة التي اشتغل عليها قبل شهور ، فاسرع بالحقبة الى الشرطة القضائية وهناك عاين ان القطعة المفصولة تتلاءم تماماً مع باقي الرزة . وادرك عندئذ ، في لمحة عين ، ان الهجوم على بريد وهران لم يكن اغتصاباً تافهاً ، نظّمه اوروبيون ، بل عملية دبرها الحزب . وابتداء من هذه اللحظة بدأت الايقافات والتعذيب وانتهى الخيط الى انا .

كدت اوقف للمرة الاولى بالبريد المركزي بالجزائر العاصمة في فبراير ١٩٥٠ ولكنني نجحت في التملص ، بدفع الشرطيين والفرار . ورأيت انهم كانوا يطاردونني ، فأخرجت مسدسي من جيبي ، ولوحت به من فوق رأسي ، ولكن بدون ان اطلق النار ، وبدون ان اتوقف عن الركض . وانثني الشرطيون عن مطاردتي لاني ابتعدت عنهم كثيراً . فضلاً عن انهم كانوا يخشون امكانية تبادل الرصاص معي .

ما هي الا استراحة قصيرة حتى اختطفوني ، بعد شهر ، من مخبئي الذي دهم عليه خائن ، في الجزائر العاصمة .

كان البوليس قد اكتشف وجود منظمتنا ، ولكنه لم ينجح ، في نهاية الحساب ، الا في ايقاف جزء قليل من مناضلي الصدام Militants de choc ، بيد انه تعلم من ذلك ان يتحدث ، بما فيه الكفاية ، عن « مؤامرة » ، وكان ، بالطبع ، يتبعج بالتمكن من سحقها واحباطها في المهد .

وعملك قادة الحزب ، كما كنا ننتظر ذلك منهم ، خوف شديد ، فتبرأوا من محاولتنا . وفي الوقت نفسه احاطوني والمتهمين معي علماً بانهم يرغبون في ان تدور المحاكمة بلا ضجيج .

لم نمثل للامر لان عملنا لن يكون له معنى الا اذا بررناه ، جهراً وبوضوح ببواعث سياسية . ونتيجة لذلك فقد اتخذنا موقفاً كفاحياً من ألفه الى يائه . ومن متهمين حولنا انفسنا الى متهمين . واغتنمنا محاكمتنا لتقديم الاستعمار للمحاكمة . وتمسكنا بهذا الموقف الهجومي حتى خارج جلسات المحكمة . من السجن الى المحكمة ومن المحكمة الى السجن كنا ننشد ، في جوقة وباصوات رعدية ، النشيد الوطني . حاولوا كل شيء ، الضغط والتهديد ، والعقاب

لانهاء الاناشيد . وفي النهاية ، فان البوليس الذي لم يصل الى اسكاتنا، تدبّر امره لكي يجعلنا غير مسموعين . فاحاط سيارة السجن بسط من الدراجات النارية، التي ما ان نفتح افواهنا حتى كانت تأخذ، بأمر من البوليس، في الضجيج . ولكن من حسن الحظ ان الدراجات النارية كانت تتوقف امام عتبة قصر العدالة ، واذ كنا ندخل الى قاعة المحاكمة او نغادرها لا نتخلف مرة واحدة عن رفع عقيرتنا بنشيدنا الوطني بحضور القضاة .

لم اشارك انا بنفسى في الهجوم على مركز بريد وهران ، ولكني اوحيت به وصرحت بصوت عال بمسؤولياتي امام القضاة . وحوكمت بثمانية اعوام سجنًا . وعندما انطلق سجن البليّنده علي وعلى رفاقي تنفّس قادة الحزب الصعداء . كانوا قد تخلصوا من مضايقين .

انهم يستطيعون الآن ان يفرقوا بكل طمأنينة في مباهج وسموم التسويات الانتخابية . وكان اول عمل سارعوا اليه هو الغاء المنظمة الخاصة -- كانوا يظنون ذلك الى الابد ! ثم كان ان 'شئت' ، بأمر منهم ، مناضلو قاعدتها وعزلوا واضطروا الى الهوان . وكانوا يحولون المسؤولين من قسنطينه (شرقاً) الى وهران (غرباً) ومسؤولي وهران الى قسنطينه . اما الاكثر نشاطاً فقد ارسلوا بهم الى فرنسا . اما الموظفون الدائمون الممتازون فقد تركوا عمداً بدون معاش . إن سويداني ، الذي مات فيما بعد بطلا اثناء حرب التحرير الوطني ، اضطر ، لكي يعيش ، الى ان ينخرط كعامل فلاحي عند كولون بالمتيجة ، برفقة المناضل بو شائب الذي توفي .

اما انا ، فقد كنت وراء الابواب ، لا في زنزانة بل في قاعة وسيمة برفقة ستين مناضلا. كان بابي سميكا وقضبان الحديد التي تسد نافذتي كانت ضخمة .

ورغم هذا نجحت في الاحتفاظ بالاتصال مع الخارج . وهكذا علمت ان
فرقة مكونة من مناضلين : مصطفى إخليف وبوديسه صافي كانا يحاولان
تهربي ، ولكنها كانا يلاقيان مصاعب جمة ، وهذه الخطط كانت لا تفتأ
تجبط وتعاكس من طرف الحزب . وكان على إخليف وبوديسه صافي لكي
ينجحا ان يستغفلا ، في وقت مما ، تيقظ ادارة السجون ، وتيقظاً آخر ،
كم كان عسيراً خداعه ، وهو تيقظ حزبي الخاص . ولكنها مع ذلك لم ينهزما :
لقد كان كل منها مناضلاً استثنائياً ، مفعماً شجاعة وإيماناً . إن بوديسه صافي
ما زال حياً ، وهر اليوم عضو باللجنة التنفيذية للاتحاد العام للعمال الجزائريين ،
ولكن إخليف أُسر غداة نوفمبر ٥٤ وحكم عليه بالاعدام . وأمرؤه على
المقصلة .

الفصل الرابع

الثورة

في نهاية مارس (اذار) ١٩٥٢ جاء بوديسه الصافي ليراني في مكان المحادثة بالسجن ، وبواسطة الحارس ناولني كيلو من الخبز لم يسلم لي الا بعد ان شُطر من الوسط ، مثلما هي العادة . انه روتين السجون الذي لا يتغير ولا يجدي : فقد كان احد طرفي الرغيف يحتوي على مبرد قوي .

وشرعنا في العمل ، بمشاركة ستين سجيناً سياسياً ، كنا نعيش بينهم . واذا كان لم يوجد بينهم خائن واحد ليشي بنا ، فذلك يبرهن على قيمة مناضلينا في المنظمة الخاصة ، وعلى العناية التي تم بها اختيارهم .

اذا كنت ما زلت اذكر ، فان الاخ كيركبان بن ناصر هو الذي كان ، يوماً بعد يوم ، يبرد قضبان نافذة كانت تشرف على الباحة . لقد كان ميكانيكياً بالمهنة . وأتم مهمته بمهارة رائعة . وبينما كان المبرد يفل ، شيئاً فشيئاً ، الحديد الذي كان يفصلنا عن الحرية ، كنا نحن الستين سجيناً ننشد في جوقة لكي نغطي ضجيج المبرد .

وكان قد اتفق الرأي على ان يحاول اثنان منا فقط الفرار : محساس^(١)

(١) سماه بن بله وزيراً للإصلاح الزراعي وبعد انقلاب ١٩ جوان ١٩٦٥ انضم للعقيد بومدين . - روبر ميرل - وقد استقال أخيراً وانضم الى احدى المعارضةات السرية - المترجم -

وانا . كانت الباحة مغلقة بجدار ارتفاعه خمسة امتار تقريباً . ولكن هذا الجدار كان مضاعفاً على بعد صغير بجدار ثانٍ اكثر علواً ، وبين الاثنين طريق يطوف به خفراء السجن ليلاً . ولقد اتفقنا على ان نصعد على هرم من السجناء لاجتياز الجدار الاول ، وبأن يلقي لنا حبل من الخارج لنجتاز الجدار الثاني .

ان في كل فرار مفاجآت سيئة على العموم . وقد اجتزنا بدون صعوبات العقبة الاولى . وعندما وصلت الى اعلى الجدار الاول ، رأيت بسرور اقوى من أي تعبير ، بان الحبل معلق على طول الجدار الثاني في المكان الذي اتفقنا عليه . ولكن اكتشفت في الوقت نفسه ، بضيق ، عموداً مكهرباً عرضه متر ونصف تقريباً ، يمتد على الجانب الآخر من الجدار الذي كنت اجثم على قمته . وعندئذ فكرنا بأنه من المستحيل ان نتعلق بالحبل بأيدينا وننسب معه الى الارض . كان يجب ، اذن ، ان ننتصب على الجدار ، مجازفين بالموت بصدمة التيار الكهربائي او بكسر فخذه ، وان نثب على عرض متر ونصف وعلى عمق خمسة امتار ، لنهلم انفسنا من على ارض طريق الخفراء المبلطة .

جربت حظي انا اولاً لاني كنت في صحة ممتازة . ونجحت تمام النجاح ، ولكن محاسن لم يكن محظوظاً . فقد التوت رجله ، وقصور ساعده عند الهبوط . وفهمت وانا ارفعه بأنه سيكون من الصعب عليه اجتياز الجدار الثاني . امسكت اولاً بالحبل ، وبالأرتكاز على الجدار بكلتا ساقى ، على طريقة متسلقي الجبال Alpiniste ، بلغت القمة . كنت أرقص الحبل لاشعار محساس بأن دوره قد آن . لم استطع ان ارى وجهه لان الليل كان بهيماً ، ولكن بسماع تلاحق انفاسه ، ادركت انه كان في تعب شديد . كنت مفرجاً ساقى على الجدار . وتركت فخذي يتدلى عمودياً مع الحبل ، حتى يستطيع ان يمسك به عندما يصل الى مستواي وعندئذ استطيع ان انخي وامسكه

من يده حتى اساعده على الصعود الى واخيراً رأيت وجهه يظهر كبقعة صفراء انفصلت من الظلام . ورأيت يده على بعد اقل من ٤٠ سنتيمتراً من كعبي ، ولكنه لم يفلح في الوصول اليها ، فسقط الى نقطة انطلاقه الاولى . ومن سماع صغير انفاسه المتقطعة في الظلام ، ادركت كم كان قد كلفه ذلك من الجهد ، فانحنيت وقلت له في مثل الزفرة « اعد كرة اخرى » .

ورأيت مرتين اخريين يظهر على اقل من متر من كعبي ثم يسقط . كنت احس بانني يائس لانه كان من المستحيل علي ان انجده . كنت منحنيًا عليه بالقدر الذي استطيع دون ان افقد توازني . وكل ما كنت أستطيع عمله ، كان انتظار صعوده الى فخذي . وفي المرة الثالثة ، قال لي من الاسفل في زفرة :

— امش ، امش ، احمد ، انت نجوت .

قلت له : — « لا ، حاول مرة أخرى » .

احسست الجبل يتوتر تحت اصابعي ، وادركت انه يقوم بمحاولة رابعة . كنت اشك في نجاحه . لاني لاحظت كيف كان التعب ، في كل مرة ، يقصيه اكثر من هدفه ، ولكن ارادة رجل محاصر قادرة على المعجزات . اندهشت لمראה وهو يثب من الظلام فجأة ، بقوة جديدة ويستمسك بكعبي . وقد ملأني نجاحه فرحاً . فأمسكت يده المتصبية عرقاً بين يدي وسحبته ، وفي اقل من لحظة كان جالساً امامي على اعلى الجدار ، « مُسْتَنْزَعاً » ، منشياً الى شطرين غير قادر على شيء آخر . لم يبق الا ان نرمي الجبل من الجانب الآخر وننزل الى المدينة النائمة . ان الحرية لم تعد الا لعبة اطفال .

كان اصداؤنا بانتظارنا . وكانوا يعلمون ان فرارنا لن يلبث ان يُكتشف ،

وان القوات البوليسية ستستخدم لمراقبة الخطوط الحديدية والطرق . وجاء الى خيالهم ان تختبئ في مكان لا يخطر على بالهم البحث علينا فيه ، عند المنازل يسكن على مسافة قصيرة من السجن في بيت صغير تكتنفه حديقة . ولسوء الحظ كانت زوجة هذا المنازل حبلى ، على ابواب الوضع ، وفي غمار التأثير بمعرفة اننا مختفيان عندها ، بينما كانت الاذاعة والصحافة لا تتحدث الا عنا ، وضعت مولودها ، وضايقنا ذلك بشكل ممت .

ما العمل ، والاحتفال التقليدي الذي يرافق الولادة عندنا لا بد منه ؟ ان هناك مجهولين يختفيان بالبيت ، واذا الغي الاحتفال فان الجيران سيشتكون فوراً بشيء ما ؟

وبعد كل حساب ، اختار المنازل اقامة الاحتفال ، وفكر في اسكاننا بكوخ من القصب ، في اقصى حديقته . ولكي يقصي عنا الاطفال ، الذين ينطلقون بعد الاكل لاشباع فضولهم في كل الزوايا ، فقد أعطانا ، للمراقبة ، كلباً هو اكثر كلابه ضراوة . انني لم ار في جنس الكلاب كله كلباً اقبح وانبح واشرس منه . كان لا بد من يوم كامل من التهديد والملاطفة والضرب لا اقول لكي يقبلنا بل لكي يتسامح بحضورنا . ثم انه كان يهرّ كامل الوقت الذي فرضنا فيه عليه ، ملقياً علينا من حين لحين نظرات عدائية ...

كنا لابدين على فراش وثير، نسمع كل ما كان يدور بين النساء من حديث في المطبخ المجاور ، وكان الاطفال يحولون قريباً جداً من كوخنا ؛ ولكن الكلب كان ، كلما اقتربوا ، يرفع عقيرته بنباح مسعور ، وعيناه تلتهبان وشعر رقبته مقشعر . لقد كان في حالة نخشى فيها ان يرمي بنفسه علينا في سؤرة غضبه .

وبما زاد الامور تعقيداً ان محساس كان قد اصيب بزام اثناء الفرار . وكانت نوبات السعال الرهيب تأخذه من لحظة الى اخرى . وكنت اراه يستحيل الى لون القرمز من الجهد الذي كان يبذله لكتم السعال العنيف ، ولم يستطع الا ان يقول لي فقط : « الوسادة » وفوراً غطيت رأسه بالوسادة فانفجر بالسعال . ومن حسن الحظ ان الكلب الذي اغاظه هذا التصرف المفاجيء انفجر بدوره . وعندها اخذ نساء المطبخ يصرخن وينادين الاطفال باصوات تصم الآذان .

انتهى الاحتفال ، وذهب المدعوون . وأبعد عنا الكلب ، وعاد كل شيء من حولنا هادئاً . كان شهر مارس (اذار) يشارف نهايته . وكان الربيع قد وضع ، بالبليدة ، ازهاراً وعطوراً في كل مكان . وكنانستنشق انسام المساء ونتنشي بها ، وكانت الالوان هي التي تسحرنا بالاخص بعد جدران السجن العمياء وساحاته التي لا شمس فيها وعالمه الرمادي الباهت .

غيروا لنا الحباً اكثر من مرة ثم سَفَرنا الى الجزائر العاصمة ، حيث اصبحت الضيف السري عند عائلة وطنية . كم احب ان يكون في الجزائر عائلات كبيرة من نوعيتها . لقد كانوا كلهم ، كبيراً وصغيراً ، حتى الفتيات ، يناضلون . ولما عاد السلام ، واصلت العائلة العمل ، من غير ان تستشير مصالحها الخاصة في اية لحظة . وكثيراً ما يتفق ان ازور افراد العائلة الآن وان اشرب قهوة عائلية معهم ، مستعيداً ذكريات الشهور الستة التي قضيتها بينهم بعد فراري . وكانت احدى فتيات العائلة تدعي حسيبة ، وهي كائن جدير بكل اعجاب ، فهي لا تعرف الا الاخلاص ، وهي تهتم اليوم باطفالنا ماسحي الاحذية وابناء الشهداء ^(١) .

(١) ابناء المجاهدين الذين استشهدوا في الحرب يربون في مؤسسات تقوم بشؤونها الدولة . وماسحو الاحذية الصغار اخذوا من الشوارع في فبراير ١٩٦٣ - روبر ميرل -

في الجزائر العاصمة حصل لي الاخوان في المنظمة الخاصة على اوراق مزيفة، وبفضل مشاركة مستخدمى الباخرة ، ركبت كمسافري الباخرة : « مدينة وهران » منطلقاً نحو مرسيليا . ومنها ذهبت الى باريس حيث قضيت بضعة شهور مختبئاً في مسكن صغير مطل بنهج كادي بمون مارتر.. وبالتأكيد كنت في باريس اكثر اماناً منى في الجزائر العاصمة . ولكنى امثالاً للانضباط كنت لا اخرج الا لماماً . فقط من اجل الاتصالات الضرورية . وكانت حياتي هادئة ومنطوية .

وفي سنة ١٩٥٣ التحقت بصر (التي كان الملك فاروق قد طرد منها قبل قليل) وكانت بداية الثورة تبدو شديدة الصعوبة . كذلك بدايتنا ، في القاهرة ، لم تكن اقل صعوبة . كنت انا واصدقائي آنذاك مجهولين تماماً في مصر . وكنا نعيش في ظروف جد حرجية : ان الفول في مصر مثل الارز في الصين ، وخلال اربعة شهور كان الفول هو الوجبة الوحيدة التي نتناولها يومياً. ووجبة الفول الجاهزة كانت تكلف ، على ما اذكر ، قرشاً صاعاً . ووسائلنا لم تكن تسمح لنا بان نقدم لانفسنا شيئاً اضافياً . ومع الثوريين المصريين كانت لنا في البدايات بعض المصاعب ، منشؤها تبايننا اللغوي . وما زالت اذكر انه عندما كنت للمرة الاولى اعرض الوضعية في الجزائر على الجامعة العربية ، كان لزاماً علي ان اتحدث بالفرنسية.. ان الفرنسية لغة رائعة بالتأكيد ولكن استخدامها في مثل هذا المكان له مفعول الكارثة. اية فضيحة كانت ! واي اجترأ على المقدسات ! بينما كنت اتحدث امام اخوتي العرب ، كنت ارى وجوههم تتشنج تحت تأثير الاندهاش . لقد كنت اتقهم مشاعرهم : العربية هي وسيلة وراية اخوتنا في وقت معاً . ولكن هل كانت لي حيلة اخرى في الامر ؟ كنت جزائرياً من جماهير الشعب ، التي غاصت في الليل

منذ قرون وقرون ، فنسبت لغة اجدادها النبيلة .

وكانت هناك اختلافات اخرى بيننا وبين المصريين . لقد كانت فكرتهم خلق وتمويل حركة كبرى مركبة من ثلاثة فروع وطنية لتحرير شمال افريقيا . هذه الفكرة لم تبد لي واقعية . ان وحدة المغرب كانت ابعد ما تكون عن التحقيق . فكيف نستطيع ان نتصرف كما لو كانت قد تمت ؟ ولماذا تطرح ، من البداية ، المشاكل الدقيقة لقيادة تعلو على الارطان Supranationale بينما كان النضال في سبيل الاستقلال ، في كل من بلدان المغرب الثلاثة ، نضالاً وطنياً بلا جدال ؟ ورفضنا ، شارحين للاصدقاء المصريين ، اسباب رفضنا . وقد اشمأزوا من اول الامر ولكن فيما بعد اثنوا على وضوح موقفنا ، ونزاهته كذلك . ورفضنا قبول تمويلهم اذ اننا كنا غير متفقين مع مفاهيمهم . وفي النهاية ، هم الذين غيروا مواقفهم ووعدونا بكل مساعدة ممكنة عندما نعلن الثورة .

ولم نكن نطلب اكثر من ذلك ! لقد كنا ننتظر على احر من الجمر! ولكن مصالي كان غارقاً الى الذقن في مستنقعات الجمود . لقد كان في الوضع السائد مناقضة لا تطاق : كانت الوضعية في تونس ثورية . وكذلك كانت في المغرب . واما الجزائر فقد كانت بلا حراك . ان جناحي المغرب كانا ينتفضان ، اما جسد الطائر الكبير فقد ظل هامداً .

خلال شهور كان الاتجاه المتصلب في الحزب - المناضلون السابقون في المنظمة الخاصة ، الذين اعدوا تنظيمهم بصورة سرية ، على صلة بالخارج وبـ - يبذل كل ما في وسعه ليدفع الاتجاه الرخو الى العمل . وفشلت كل مساعيه . لان المصاليين الذين اداروا ظهورهم للتاريخ لم يعودوا يحملون الا بالانتخابات .

في خريف ١٩٥٤، اجتمع قادة المنظمة الخاصة في سويسرا وقرروا، خارج اطار الحزب وبدون علمه ، الشروع في العمل . لم نحدد يوماً لشن العمليات ، لاننا كنا لا نريد ان نربط رؤساء الداخل بتاريخ محدد . وهم الذين ، على ضوء الوضع الداخلي ، اختاروا غرة نوفمبر .

في الواقع بدأت الثورة الجزائرية المسلحة بقليل جداً من السلاح : ٣٥٠ ار ٤٠٠ قطعة فقط من البنادق الايطالية Mousquetons وصلت من ليبيا . ولقد وجدت المنظمة الخاصة عنتاً شديداً في ادخالها الى الجزائر بطرق ملتوية : من طرابلس الى غدامس ومن غدامس الى بسكرة . ولقد نام هذا السلاح اكثر من عام على هذه الارض الجزائرية التي كنا نريد ، بعونه ، استعادتها . كان يُستخرج من الارض في آماد منتظمة ليُنظف ويدهن ثم يلف من جديد في الخرق ويدفن في مكان جديد . ولم يكشف اي من مخابثنا قط ولم تقع اية خيانة .

وعندما آن الاوان وُزِعَ هذا السلاح في كل مكان تقريباً من البلاد وبالاخص في الاوراس ، الذي كنا نريد ان نجعل منه الحصن الاساسي للثورة . بيد ان اي قطعة سلاح لم ترسل الى عمالة وهران . لان اصدقاءنا المغاربة وعدونا بان يزودونا به . وضرب الموعد في مكان ما من الريف؛ وفي الوقت والمكان المعينين حضر رجالنا ببغالهم . وانتظروا اياماً طويلة ولكن احداً لم يحضر . وعادت قافلتنا بخفي حنين عشية غرة نوفمبر . واستولى على المسؤول المحلي الكبير اليأس . ولم تعد لديه الوسائل ليخبر رؤساء الداخل بخيبتة المريرة ، لانه كان يخشى ان يظهر في عينهم بمظهر الجبان . ولذا شرع في الهجوم يوم غرة نوفمبر بالوسائل التافهة التي كانت لديه وترك حياته في ذلك الهجوم .

كنا نعلق على غرة نوفمبر نتيجتين ، إحداهما عظيمة الأهمية وبعيدة المدى : هي جعل الشعب الجزائري برمته يلتف حول عمل شنته أقلية نشيطة . والنتيجة الثانية كانت تعود لخطأ متوقع من الخصم : ولقد ارتكبها كما كنا نأمل ، وحصلنا منها على ربح عظيم . لم نكن ، في الواقع ، نجهل انه في حالة « ضربة قاصمة » لن تتأخر الحكومة الفرنسية عن حل حركة انتصار الحريات الديمقراطية وسجن مسؤوليها . وذلك ، بكل ارتياحنا ، ما فعلته . وهكذا خلصتنا من « ساسة دسائين » Politicards كانت تحسبهم شركاءنا ، وكانوا في الحقيقة يضايقون ، على نحو رهيب ، عملنا بالبليلة التي كانوا يشيعونها في أفكار الجماهير . وهكذا بفضل الخصم أصبحت جبهة التحرير الوطني التي أسستها المنظمة الخاصة في غرة نوفمبر هي القوة السياسية الوحيدة للجزائر .

وعندما استُبدل سوستيل^(١) بليونار أدرك هذا الأخير مدى الهفوة التي ارتكبها أسلافه . فأفرج فوراً عن بعض المسؤولين ، وأبقى على حزب « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » L U. D. M. A. الذي يقوده فرحات عباس ، وأجرى اتصالات مع رؤسائه . وفكرة سوستيل كانت أن يشجع ، بطرق غير مباشرة ، حركة قومية معتدلة تحبذ مثلنا نفس الأهداف ، ولكن بطريق قانونية انتخابية ... لقد كان المشروع ذكياً ، ولكنه فشل لسببين : أولاً لأن قادة « القومية المعتدلة » الانتهازيين بطبعهم ، لم يتخلفوا ، من أجل تغطية أنفسهم ، عن الاتصال بنا ، ولم تتخلف من جهتنا عن إفهامهم بصراحة بأن ألاعيبهم السياسية لن نتسامح معها إلا في الحدود التي يمكن أن نخدمنا . وثانياً لأن اعلان الثورة في الشمال القسنطيني ، يوم ذكرى خلع محمد الخامس ،

(١) الحاكم الفرنسي العام للجزائر

- المترجم -

في ٢٠ آب ١٩٥٥، بعد عام من اندلاع غرة نوفمبر، برهن للرأي العام الجزائري بأن جبهة التحرير الوطني أبعد ما تكون عن التلاشي ، بل انها نجحت في توسيع وتكثيف عملها . وفوراً استخلص « القوميون المعتدلون » الأعداء على سوستيل ، كل النتائج المرغوبة ^(١) .

وبينا كانت الثورة تنمو ، كنت مع أصدقائي في الخارج أنظم دعم العمليات بالسلاح Le Soutien Logistique . وبنادق غرة نوفمبر لم تكن تستطيع أن تدعم طويلاً حرب عصابات . كانت مهمتي الحصول على أسلحة أكثر جدية من الأقطار العربية وادخالها للجزائر .

وإذا كانت مصر قد أمدتنا ، منذ البداية ، بمساعدة عظيمة ، فإن كل الأقطار العربية بدرجات أقل ، قد ساعدتنا . وأقول لك الأقطار العربية بما في ذلك الأقل تقدمية مثل الأردن والعربية السعودية . ان الملكة ديننا الجذابة أعارتنا يختها لنقل السلاح الى الساحل المغربي . وفي البداية ، كانت هذه الاعارة ، اذا تجرأت على القول ، بغير اختبارها، ولكن عندما أوقف الاسبان عمال اليخت واحتجزوه إثر عمليات قاموا بها ، اضطررنا للاعتراف للملكة بأننا قد استعملنا يختها الجميل . وفوراً عفت عنا . وشرعت في العمل عن طيبة خاطر ، وطلبت من الاسبان تحرير السفينة والمحولة، مؤكدة لهم انه بأمر منها، وعلى هواها، كان يختها يتجول بدونها على مسافة ٣٠٠٠ كلم من مرفأ الإرساء .

كان اليخت يدعى بنفس اسم الملكة . وكانت سفينة عجيبة . وقد اصطدم في قلب الليل بكثيب من الرمال ، في خليج صغير ، بالساحل

(١) يشير بن بلة هنا الى البيان المسمى ببيان الـ « ٦١ » منتخباً جزائرياً الذين جمعهم بعد ٢٠ أغسطس - أوت - ، في قصر كارنو ، بن جلول واعلنوا رفض الادماج. وهكذا فقدم مشروع سوستيل كل قاعدة سياسية جزائرية . - روبر ميرل .

المغربي . كان ذلك في فبراير ١٩٥٥ . كان المساء بارداً ، وكان البحر طامياً ، وقد مُدَّ حبل من السفينة الى الشاطئ ، وتعمى رجالنا ، وطوال الليل ، ظلوا ينقلون صناديق السلاح الثقيلة من اليخت « دينا » الى الأرض اليابسة ، غارقين الى الصدور في الأمواج المثلجة . كانوا مناضلين من مغنية وتلمسان اجتازوا الحدود ، قبل خمسة عشر يوماً ، وظلوا ينامون على الأرض مشتتين عند سكان الريف الساحلي . كانوا يرتجفون من البرد ، وكان الصندوق مثبتاً ، بتوازن على الرقبة ، بيد ، واليد الأخرى ممسكة بالحبل . وكان كل واحد منهم يقطع في كل مرة ٢٠٠ متر في هيجان بحري عنيف . لم يكن هناك قمر . واذا تركوا الحبل ، فلن يبقى لهم ، للاهتمام ، إلا الضوء القليل المتقطع المنبعث من قنديل كهربائي .

أصيب بعض المناضلين بجروح ، وفقد آخرون سلامة بعض أعضائهم ، وقد أصيب بعضهم فيما بعد بذات الرئة ، ولكن ما أن طلع الفجر حتى كانت اليخت قد أفرغت شحناته ، والأسلحة قد دفنت في الأرض ، وفي صباح اليوم التالي أمر الفلاحون الريفيون قطعان الغنم على رمال الشاطئ لحو الآثار . ولكن الأمور ساءت عندما شُرع في تحريك اليخت . لأن البوليس الاسباني تدخل في الموضوع ، فاكتشف غواصون في القعر أمام مقدمة السفينة حربي بندقية من طراز موزير Mauser . وكما سبق ان قلت فان عمال السفينة اوقفوا . ولكنهم انطوا على السر كما تنطوي الحمار . واستمر البحث من الطرف الاسباني بغير اكرات كبير . واذا كان التدخل الحازم من طرف الملكة دينا لم يقنع رجال البوليس كل الاقناع ، فقد مكنتهم على الاقل من ذريعة كانوا يبحثون عنها لحفظ القضية .

بعد عملية اليخت دينا تمت عمليتان اكثر اهمية بكثير ، كانت أخراهما قد

نفذتها سفينة حربية مصرية . ولم يعد الامر يتعلق ببنادق - موسكوتون - ولكن بالبنادق الرشاشة ، والرشاشات ، ومدافع الهاون والباروكا، وقذائف اليد الدفاعية ، وكمية كبرى من الذخيرة الحربية : اسلحة من صنع الماني والانجليزي ، كانت في معظمها جديدة ، عصرية ومتقنة .

وبفضل هذا التسليح استطاعت الثورة الجزائرية ان تتقدم الى العمل ، يوم ٢ اكتوبر ١٩٥٥ في جهة وهران ، الجهة الوحيدة التي بقيت حتى هذا التاريخ توصف بانها « هادئة تماماً » في تقارير العدو . وبعد قليل ثارت جبال الونشريس بدورها . ومضى الزمن الذي كان فيه الخصم يأمل قهر الثورة بعزل الاوراس . وغدت الآن جبهة التحرير الوطني تخوض المعارك في كل انحاء الجزائر الثائرة .

وفي طول الشمال الافريقي كانت الجماهير العربية قد حملت السلاح ، لان ثورة جهة وهران كانت قد نُظمت بالاتصال مع الثوار المغاربة الذين كانوا يشنون العمليات في الريف . بل انهم ارسلوا بكتائب في اتجاه تعز (١) والاطلس . اذا كانت ثورة الشمال القسنطيني قد احبطت مناورة سوستيل فان الانطلاق المثير يوم ٢ اكتوبر من نفس العام لجهة وهران والريف قد احبط مناورة جرانديفال Grandval بالمغرب . واضطر الخصم ، خشيّة من خسران كل شيء ، الى الاستسلام . فاسرع لاعادة محمد الخامس الى عرشه ومنح المغرب الاستقلال في نداء التكافل L'interdépendance .

لقد ولّد استقلال المغرب واستقلال تونس ايضاً تأثيراً عميقاً على الجزائر . فمن الناحية السياسية بات من المستحيل حرمان الجزائر مما حصلت عليه

(١) منطقة تقع بالمغرب شرقي فاش على الحدود الجزائرية - المترجم -

جارتها . ولكن ايقاف اطلاق النار في المغرب - من جهة اخرى - طرح علينا مشكلا خطيراً : ان الجيش الفرنسي من الآن فصاعداً مطلق اليدين ليركز علينا عمله . وقد كانت استراتيجيتنا تركز على تشتيت قواه في كل انحاء المغرب . وعندما حل السلام بتونس والمغرب ، اصبحنا وحدنا ، من الآن ، الذين نقاوم هجمات اسلحته .

اننا لا نستطيع ان ننفي ان بعض المسؤولين الجزائريين ، في ذلك العهد ، شعروا بالمرارة . لقد انتقلنا من النار فستق الاستقلال ، واخواننا كانوا على الحدود يتأهبون لأكله . ولكني فكرت بان الغضب لم يكن يجدي . بل بالعكس كان ينبغي ان نحصل على الوضع الجديد على اقصى ما نستطيع من المزايا للجبهة . وذهبت لمقابلة محمد الخامس في مدريد . ووجدته رجلاً بسيطاً ذكياً في منتهى النزاهة ، ومهماً كثيراً بعواقب ايقاف اطلاق النار المغربي علينا . قد أبالغ بعض الشيء اذا قلت اني شعرت لديه بنوع من تأنيب الضمير في حقنا : هذا الاحساس يشرفه كثيراً لانه ، فيما يخصه ، لم يكن له شيء يأخذه على نفسه . وانهت محادثتنا بنتائج هامة . لقد وعدنا محمد الخامس ، في غيبة المساعدة العسكرية المباشرة ، بمساعدة كبرى . لقد اعطانا ، فيما اعطانا ، تأكيداً صريحاً بان تكون الحدود المغربية في كل لحظة بالنسبة لنا حدوداً صديقة ، وممكنة العبور ، دخولاً وخروجاً ، للأسلحة والرجال .

بعد انني واصلت ارسال السفن المحملة بالسلح الى الساحل الريفي ، بحظوظ في النجاح مختلفة ، ولكن أياً منها لم يكن بالنسبة لنا نكبة كما كانت سفينة لاتوس L'Athos ، التي اختطفها ، كما هو معروف ، البحرية الفرنسية . لقد كنت اقدر ان هذا النشاط السري القوي الذي يترتب من هذه العمليات لن يمر علي بدون مفاجآت واطار .

غير ان العجيب ان المتاعب لم تأتني من المخبرات الفرنسية بل من رجال
المخابرات الاميركية . لانهم ، فيما اعتقد ، وجدونا جذريين اكثر من اللازم .
لذلك انشأوا في ليبيا ، بالاعتماد على بعض العناصر المعتدلة في جمعية العلماء^(١)

(١) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حركة اسسها المصلح الجزائري العظيم الشيخ عبد الحميد
ابن باديس الذي يعتبر موضوعياً وتاريخياً من اكثر زعماء القومية العربية في الجزائر ، بعد الامير
عبد القادر ، عداء للاستعمار وفداة في الرأي ، وانفتاحاً على روح العصر . كان هدفه الاول من
انشاء الجمعية محاربة طبقة الكهنوت والشيوخ ، المرتبطة فكراً ومصصلحة ، بالطبقة الاستعمارية
الفاشية ، والتي كانت تروج من المنابر سموم الادبولوجية الاستعمارية ، جاعلة من الاسلام تبريراً
وقحاً لـ « ضرورة » الحضور الاستعماري ، ونشر الذهانات Psychoses المرسودة لتنويم الوعي
الشعبي ، وامتصاص تمرده واستيائه من نظام الاحتلال المهيمن ، واغراق الروح الكفاحية للشعب
في مخاوف رعب خرافي .. لفصلها اكثر فاكثر عن قضايا عصر الثورة العالمية المعادية للاستعمار
والاستغلال .

لم يكن ، اذن ، غريباً في منطق اوضاع ذلك العهد ان يغدو بن باديس هدفاً لكل السهام
الرجعية : اتهموه بالالحاد والشيوعية . واعلنت مجامعهم نبذه . وكان ائمة المساجد ، الذين تمولهم
السلطات الاستعمارية ، يلعنونه من المنابر في صلوات الجمع . وكانت ذريعتهم في هذه الحملات
الحاقدة بعض الاقوال المأثورة عليه مثل : « اللهم اجعلنا في الدنيا من اهل اليسار وفي الآخرة من
اهل اليمين » و « الشيوعية خيرة الارض » ... وهي كلمات قالها او كتبها ، بشجاعته المعهودة ،
في مواقف حاسمة خذله فيها اكثر انصاره وانجده فيها دعم اليسار الحازم . الا ان السبب الجوهرى
لتألب الرجعية الدينية العميلة عليه لم يكن مجرد اقواله بقدر ما كانت اعماله التقدمية والوطنية ؛
بينما كان رجال الدين مجمعين على ان اختلاط الفتى بالفتاة رجس من عمل الشيطان ، انشا ابن
باديس سنة ١٩٣٤ اول مدرسة مختلطة في الجزائر للبنين والبنات . وبينما كان بعض قادة
البورجوازية « الوطنية » في الجزائر يطالبون بالادمج ، اى باعطاء الجنسية الفرنسية لكل
الجزائريين ، كان ابن باديس يرد عليهم في مجلة « الشهاب » نشرأ ونظماً : وما زال نشيده الذي
رد به على فرحات عباس الى اليوم على كل لسان :

شعب الجزائر مسلم	والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجاً له	رام الحال من الطلب ←

وفي حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ، شبكة تحت قيادة اميركي مسلم تعمل بازاء شبكتنا .

كانت للمخابرات المركزية الاميركية ، هي الاخرى ، بكل وضوح ، هدفان : تسليح القوميين الجزائريين ضد فرنسا (التي كانت حليفهم في الحلف الاطلسي) وذلك لتقطف منهم غداة الاستقلال ثمار مساعدتها ، ومن جهة اخرى دعم المعسكر الجزائري المحافظ على حساب الجزائريين المتهمين بالاشتراكية .

لا هذا ولا ذاك من المهدفين قد نجح . واذا كانت الشبكة الاميركية تشتري ، في الواقع ، السلاح - بكميات غير كافية طبعاً - وقد نجحت مرة أو مرتين في ادخاله للجزائر - فانها كانت تسلمه لأناس ليست لهم اية رغبة في القتال ، وانما كانوا فور تسلمه يدفنونه الى الابد . الا ان هذه الشبكة ، بالنسبة لنا ، كانت بالعكس تضايقنا بشكل وبيل . ذلك ان عناصر هذه الشبكة كانوا صاخبين وثرثارين ومتعفين ، ومثقلين بالدولار ، ويعيشون ، بالاضافة الى ذلك ، حياة مسرفة ، وبذلك تمكنت المخابرات الفرنسية من

→ ولكن بعد وفاته تحولت، مع السنين ، الجمعية الى حزب سياسي لبقايا الاقطاعية والبورجوازية الزراعية المنغلقة ، التي قادت على عهد السلطة الثورية ، ١٩٦٢ - ١٩٦٥ ، حملات التكفير ضد دعاة الاصلاح الزراعي ، واختلاط المرأة بالرجل في العمل والدراسة، وتحرر المرأة الجزائرية من طغيان الأب والزوج ورق القرون ، وانتهاج سياسة حازمة ضد الامبريالية الاميركية وتدخلاتها السافرة في كوبا والكونغو وفيتنام وسان دومنجو . ومعروف ان جمعية العلماء وقفت من الثورة المسلحة ، بالاخص ، في البداية موقفاً معادياً مرة وانتهازياً مرة أخرى . وكان كثير من اعضائها يصفون الثوار بنفس النعوت التي كانت تصفهم بها سلطات الاحتلال ، باستثناء قليل من مناضليها مثل الشيخ العربي التبسي ورضا حوحو ، الذين وقفوا مواقف شريفة من الثورة . -المرجع-

رصدهم بسرعة ، وبمجاهتهم تمكننت هذه المخابرات من اكتشاف شبكتين من شبكاتنا بروما ونيبيا .

هؤلاء الهواة كانوا يحرقوننا . فقررت ان ادخل في العمل ضدهم . وقد التقيت في روما بالاميركي المسلم الذي كان يقود الشبكة . وخلال مشهد عنيف ، هددته بتصفية شبكته اذا لم تتوقف عن العمل . ولكي ابرهن له اني لا امزح حبست الرجال الذين كانوا يأتمرون بأمره في المغرب . ولم اطلق سراحهم إلا بوعده الصريح بالكف عن الظهور .

بينما كنت أطارد الشبكة الاميركية ، كنت أنا نفسي مطارداً من مصالح المخابرات الفرنسية ، التي ظهرت لي للمرة الاولى في القاهرة في أوائل سنة ٥٦ . كنت في مكنتي الصغير بصدد مكالمة تليفونية ، عندما دخل علي الشاويش وبيده طرد . ورفعت رأسي :

— ما هذا ؟

— انه طرد باسمك حملة اليك تاكسي من سميرامس .

كان اسمي ، طبعاً ، اسماً مستعاراً يعرفني به قليل جداً من الناس في القاهرة .

— هل السائق هنا ؟

— ايوه . انه بالاسفل ينتظر البقشيش .

— اعطه اياه وسلمه الطرد ، وقل له ان يعيده للمرسل . افعل بسرعة .

ولكن القنبلة كانت زمنية بكل دقة واحكام . فلم يكذ التاكسي يقطع مئة متر حتى انفجرت بدوي مرعب . وعندما وصل رجال الشرطة الى مكان الحادث وجدوا الصندوق الخلفي للسيارة معلقاً بشرفة في الطابق السادس.

أما السائق البائس - ضحية بريئة لحرب لا يعلم منها شيئاً - فلم يعثروا من جسمه إلا على بعض الحطام .

وبعد هذه الحادثة قال لي صديقي محساس الذي كان مسؤولاً عن الأمن :
- يجب عليك كلياً ان تحافظ جيداً على نفسك . انك متغافل بمن نفسك كثيراً . ليس عندك حتى قطعة سلاح .

وبعد هذه الكلمات ادخل في جيبي مسدساً . ورفعت كتفي : مسدس ضد قنبلة !! ولكنني احتفظت بالسلاح . وعزمت مصر الى ليبيا ، بدون أن اشك في ان فخاً آخر ينتظرني في طرابلس .

ان ليبيا هي أحب قطر عربي الي ، باستثناء الجزائر طبعاً . وقليلة هي الشعوب التي كانت تبدو لي جذابة مثل الليبيين . انهم بسطاء ، اذكياء ، ودودون . وأستطيع ان اقول ان حلاوة الطقس انسابت الى ارواحهم . انني اظل مشدوهاً عندما أفكر فيهم ، وفي لطفهم الذي لا ينضب له معين ، وفي قدرتهم الرائعة على الصداقة ، وفي طهارتهم ايضاً ، لأنهم عاشوا بعيداً عن قلاقل العواصم الكبرى فان الفساد لم يجد اليهم سبيلاً . وحتى البورجوازيون الرجعيون في ليبيا يملكون طريقة ما في التصرف تجعلهم ، من بعض الجوانب ، لطفاء .

عندما عدت الى ليبيا بعد الاستقلال ، خصني الليبيون باستقبال لن أنساه ما دمت حياً . لقد غمروني بلطفهم وكرمهم فلم أعرف كيف ابرهن لهم عن صداقتي وحيي ، وقد قلدوني لقب دكتور شرف من جامعة بنغازي . وقد كنت نصف متأثر ونصف ضاحك وأنا اذكرهم ، بينما كنت اعانقهم ، بان كل ما عندي من الشهادات الفرنسية هي الشهادة الابتدائية - متاع خفيف للقب

جد ثقيل - ولكنهم لم يريدوا أن يصفوا الي . وأصبحت دكتوراً شرفياً -
بفضل شعب من اكثر شعوب العالم لطفاً وحباً .

كنت في طرابلس ، سنة ١٩٥٦ ، عندما تترك لي مواعيدي قليلاً من
الوقت ، اذهب للزحمة في الحديقة الكبرى بالمدينة . وفي هذه الحديقة اعطيت
موعداً ، قبل ١ نوفمبر ١٩٥٤ بأيام قليلة لمصطفى بن بو العيد الذي اصبح فيما
بعد القائد الكبير لثورة الاوراس . ولما كان بلا اوراق هوية فقد كان عليه
ان يمر على الجنوب التونسي ، ويمشي في الصحراء ، ميتاً من العطش ، طوال
أيام . ثم وصل مستنزفاً ورجلاه دامتان . وفوراً اعتقلته السلطات الليبية .
وعلمت بذلك وبعد زمن قليل نجحت في اطلاق سراحه . وقضينا معاً عشرة
أيام لضبط خططنا . كنا نحن الاثنين جد فقيرين الى حد انه لم يكن لنا
صالون للأكل غير حديقة طرابلس الكبيرة . وكل ما عندنا من طعام كان
قليلاً من الخبز والعنب . ولكن قلوبنا كانت عامرين بالايام بيلاد عالم افضل .

عاد بن بولعيد لمقابلتي في أوائل ١٩٥٥ ، ولكن هذه المرة اوقفه رجال
الدرك التونسيون . وخلال المعركة للتخلص قتل واحداً منهم . وفر .
ولكنهم أدركوه . وسلموه للسلطات الفرنسية التي حكمت عليه بالاعدام .
ونجح ، لست أدري بأي معجزة ، في الفرار يوم ٤ نوفمبر من نفس العام ،
والتحق بثواره في الاوراس . ولم تكذ تمضي بضعة شهور كان خلالها مهتماً
بإعادة تنظيم فرقته ، حتى جاءه الفلاحون يحملون اليه جهاز ارسال كانت
احدى الطائرات الفرنسية قد اسقطته « خطأ » بعيداً من مركز عسكري .
وكان جهاز الارسال محشوا بالبلاستيك المتفجر فمزق بن بولعيد . كنت أتنزه
حزيباً في الحديقة حيث تغدينا بزهد قبل عامين . كنت أذكر صفاء بن
بولعيد وقوته الروحية، وصبره امام المحنة ، ولم اكن اشك مطلقاً وأنا استعيد

ذكرى المجاهد الكبير الذي اختفى ، ان الموت كان معي على موعد في نفس اللحظة ، بطرابلس .

كان لليد الحمراء اسم وكان لها وجه . انها تدعى جان دافيد . لماذا جعل هذا الرجل ، الذي كان كولونا ^(١) فرنسياً يعيش في تونس ، نفسه في خدمة اليد الحمراء الفرنسية ؟ ولماذا قبل مهمة قتلي . ان الذين استعملوه يستطيعون وحدهم اليوم أن يقولوا ذلك لذا . سواء كانت اليد الحمراء ام لم تكن فرعاً من الاستخبارات الفرنسية ، فقد جعلت الناس في ذلك العهد يتحدثون عنها كثيراً. ونجحت في القيام ببعض المحاولات ضد مناضلينا بالمانيا. على كل حال كان جان دافيد قتلاً كفوا . لقد كشف عن ذلك البحث . وقد نظم محاولة اغتياي بعناية كبيرة خلال ستة شهور لأنه نظراً لعلاقتي مع الحكومة الليبية ، فقد كان يظن اني محروس وهو ما لم اكنه . هذه العلاقات كانت موجودة ، والمساعدة كانت حقيقية ، ولكنها كانت تعطى لنا في سرية مطلقة ، لأن ليبيا كانت ما زالت تحت النفوذ الاجنبي . ورئيس الشرطة كان انجليزياً .. كان علي اذن ان اعمل في شروط السرية التامة . وان أمر متواريا عن انظار الجميع ، بما في ذلك البوليس ومصالح الامن الليبية.

ظل جان دافيد يحضر خطته مدة ستة شهور، مقدماً نفسه على انه نائب دار تجارية . وكان لا يفتأ يتردد بين تونس وليبيا . وقد عود الجمارك الليبية والبوليس الليبي على رؤيته يمر بالليل والنهار في سيارته ، دائماً متادباً ودائماً بشوشاً ... وأخذ الليبيون بلطافة هذا الاوروبي ، وبالتعود ، اذا جاز القول ، على مروره المتعاقب بدأوا يمفونه شيئاً فشيئاً من الاجراءات الطويلة

(١) الكولون هو اسم يطلق على الفرنسي الذي يمتلك الارض بالمستعمرات . واسمه مشتق من لفظ الاستعمار .

- المترجم -

التي يفرضها على الاجنبي الراكب للسيارة عبور الحدود . وهذا التعود كان ، بالنسبة لجان دافيد ، ذا اهمية ، لأنه بعد ان يضرب ضربته كان عليه ان يفكر في امته ، وفي العودة الى تونس بأسرع ما يكون .

هناك عواصم لا يستغرب المرء ان تصبح او كارا مغلقة للعملاء السريين . ولكن طرابلس لم تكن في عداد هذه العواصم . فلا شيء اكثر هدوءاً من هذه المدينة المحبوبة . انها تستطيع دائماً أن تستغني عن البوليس لأن الناس مسالمون . كنت اسكن في فندق جد صغير ولكنه نظيف يدعى : اكسيلسيور Excelsior وكان صاحب الفندق ينام مبكراً . ولم يكن الفندق محروساً بالليل إلا من حارس لا يحرس إلا قليلاً . كلما كنت أعود لأنام في ساعة متأخرة ، لأنني كنت احدد مواعيدي مع الليل ، كنت أجده دائماً غافياً خلف المنضدة .

في ذلك اليوم عندما عدت الى الفندق - اكسيلسيور - حوالي الساعة الواحدة صباحاً رأيت سيارة واقفة امام الفندق . وعرفت منها انها كانت سيارة اوربي قاطعتني بالطريق في نفس الامسية عندما كنت خارجاً من الفندق . ولاحظت خفية ان الكرسي الخلفي كان مملوءاً بالحقائب ، كما لو أن صاحب السيارة كان يستعد للسفر .

كان الحارس ، بطبيعة الحال ، نائماً . فأخذت مفتاحي من غير ان اوقظه . وصعدت للطابق الاول . وفتحت بابي وأمررت يدي من انفتاحة الباب القليلة لإنارة الغرفة . وأدرت الزر ولكن شيئاً لم ينره . فكرت : « القنديل محروق » ، وتقدمت خطوة للدخول الى الغرفة . وفي هذه اللحظة بالذات ، شعرت في اعماقي بإشارة الخطر الخفية التي تنذرنا غالباً بعد ربع الثانية الاخير ،

بان خطراً يهددنا . وتوقفت : ربما كان مهاجمي قد احس بترددي ، لأنه لم يكن ينتظر ان أعود فاغلق الباب . ثم ضرب . ولكنه ضرب قبل الاوان . لا على الرقبة كما كان ينبغي ان يفعل . ولكن على جانب الرأس . كانت ضربة رهيبة . ولكنني لم أسقط ولم افقد وعيي . وشددت جمع يدي في اتجاهه فضربته وضربني هو الآخر . احسست باني أوشك ان اتلاشى . وفكرت في مسدس محاسن فتراجعت وانبطحت على الارض ثم أطلقت النار . اطلقت شحنة بكاملها في اتجاهه دون ان اصيبه ، واعتقد انه اطلق النار ايضاً لأن زجاج النافذة التي كانت خلفي قد تطاير شظايا . وكانت الطلقات تدمدم بقوة قصم الآذان . ورأيت هيكله ينسل في الظلام من زاوية الباب المضاءة وادركت انه يلوذ بالفرار .

وقفت مترنحاً ، وأحسست بسائل حار يسيل على وجهي ، ودون ان افكر بانه لم يعد عندي ولا طلقة واحدة لمسدسي لحقت بخصمي . وأدركت الدرج ، وما ان وضعت رجلي على الدرجة الاولى حتى سقطت مغشياً علي ورحلت اتدحرج الى اسفل .

وأشعرت الجهات المختصة بالتليفون . فأقيم سد في الطريق . ولكن جان دافيد هجم على السد فابتعد رجال الدرك ومر . ولكنه ارتكب خطأ : انه احسن الظن كثيراً باللاطافة الليبية . فعلى بعد بضعة كيلومترات من الحدود ، اقيم دونه سد آخر . وأراد ان يمتازه بالقوة مثل السابق . ولكن الرصاص انهال عليه فسقط قتيلًا .

* * *

ضمدت جراحي . وعولجت ، وشفيت بسرعة . لقد منحني القدر وقف

التنفيذ ، ثم انذرت بالخطر في روما . ولكن لم يحصل شيء خطير . لقد كنت احمي نفسي بحركتي الدائبة . لا أبقى ابدأ طويلا في مدينة واحدة ، وجل الوقت كنت ، لضرورة ارسال السلاح ، انتقل من مكان الى مكان . حتى اني استطيع القول اني امضيت حياتي في الطائرة بلا ادنى مبالغة . كنت في الاجواء بلا انقطاع ، في مكان ما بين القاهرة وطرابلس ، وروما ، ومدريد ، وتطوان .

وما زلت اذكر ، باني كنت عندما اجلس على مقعد الطائرة وأشد حزامي ، افكر باني ، هنا على الأقل ، سأتمتع باستراحة : وسأكون - لبضع ساعات - في أمان تام .

كنت غطئا . والمستقبل لم يتوان عن افهامي ذلك .

الفصل الخامس

الأسر

قبل ان تحدث عن اعتقالي، اريد ان اعود قليلاً واستعيد النتائج السياسية الخطيرة التي نتجت عن مؤتمر الصومام ^(١) .

(١) مؤتمر الصومام انعقد في ٢٠ آب ١٩٥٦ ، وكان منظمه هو القبائلي كريم بلقاسم ، وقد نقح التنظيمات القيادية للثورة الجزائرية لاعطاء الثقل للداخل على حساب الخارج ، والعقد من نفوذ بن بلته ، و « القادة التاريخيين » لغرة نوفمبر ، وافساح المجال امام القوميين المعتدلين امثال فرحات عباس الذي كان قد انضم مؤخراً لجبهة التحرير الوطني. روبر ميرل

تعقيب من المترجم

منذ الاسابيع الاولى للانقلاب اصبح يوم ٢٠ آب-اوت-١٩٥٦ يحاط بمراسم احتفال غير معبودة، هي بشكل ما تعبير عن حنين القوى البيروقراطية الرجعية لبعض النوعيات السياسية التي كانت وراء تنظيم المؤتمر الذي عقد ، بأوزلاخ غير بعيد من اقبو بوادي الصمام في ١٩٥٦/٨/٢٠ ، في غيبة « الوفد الخارجي » الذي كان يضم العناصر الاساسية التي اسهمت في تفجير الثورة المسلحة . وكان من الطبيعي ومن المقرر ان يحضروه . ولكن الاتصال بهم « قطع » بقدرة قادر . وهكذا احيل بينهم وبين حضوره . كأنما لأمر مُبَيَّن . وقد عقد المؤتمر بعد اندلاع الثورة بعامين ، في الوقت الذي كانت فيه البورجوازية اللاوطنية ، التي ظلت طوال سنين تطالب بالادماج ، تعلن بين عشية وضحاها افلاسها وتوبتها فتصبح « وطنية » وتنضم للثورة . والممثل البارز لهذه البورجوازية « التائبة » هو فرحات عباس ، رئيس الاتحاد الديموقراطي لحزب البيان الجزائري الذي كم سأل المقابر عن هوية اجداده فلم يجد لديها جواباً . وألمه هذا « الصمت » المطالبة بادماج الشعب الجزائري في الامة الفرنسية . وكان انضمامه في نيسان ١٩٥٦ ، بعد مصرع شقيقه العميل برصاص الثورة .

كان الهدف ، الظاهر ، من عقد مؤتمر الصومام اعطاء الثورة المسلحة مذهباً اديولوجياً ، ومنظمات مرتببة .

اما المذهب فبرنامج الصومام كان ابعد ما يكون منه . بل ان كلمة الاشتراكية لم ترد فيه حتى سهواً . والتركيب الطبقي وطبيعة السلطة بعد الاستقلال لم تطرح اصلاً . قصارى ما دار فيه حديث غامض عن دور الطبقة الشغيلة الجزائرية في الثورة المسلحة . وادانة للعنصرية في جزائر ما بعد الاستقلال . والتعاون فيها مع الاوروبيين غير الاستعماريين . وهذه النقاط مهما كانت ايجابية فانها لا تشكل ، بداهة ، اية اديولوجية بله اديولوجية الثورية . بل هي لم تكن حتى منهاجاً متكاملًا للعمل الثوري . ولا شك ان غياب اديولوجية الثورية والمنهاج الواضح ←

لا جدال في ان المؤتمر حمل للثورة أبنية Structures ونظاماً مَرْتَبِيّاً
Hiérarchie وتنظيماً كانت جميعاً مفقودة . ولكنه حمل اليها ايضاً . وفي

→ من الثورة التحريرية قد تساعد كثيراً - مع اسباب أخرى اساسية أو رافدة - على تسال
البورجوازية « الثابتة » الى قيادة الثورة ، وانغراس العناصر المحافظة والرجعية في صفوفها .
وهي التي كانت تعطي الاوامر بتصفية المثقفين التقدميين والمناضلين الاشتراكيين الذين يلتحقون ،
وبأيديهم السلاح ، بكتائب الثورة . وكانت الدعاية المادية للافكار الاشتراكية تروّج على اوسع
نطاق . بل لقد وصلت هذه العناصر الى حد رفض السلاح المعروض من جهات اشتراكية معينة
الى ما قبل ١٩٦٠ . وكان مجيء لومومبا الى المسرح الثوري الافريقي والعالمي ، واقدامه على
اجتياز « المنطقة الحرام » عامل ضغط اضافياً لارغام البورجوازية التي تسلت لقيادة الثورة ،
بفضل سلسلة من الظروف المواتية منها : استشهاد بعض القادة التقدميين للثورة المسلحة مثل
« سي الاخضر » الذي ، كسراً لمؤامرة الصمت ، خلّده الادب الشعبي في اغنية هي اليوم على
كل لسان : « الله ينصر حزب الثوار » . ومنها اختطاف طائرة بن بلّ ، وتصفية العناصر الأكثر
انفتاحاً على افكار التقدم مثل عبان رمضان ، وتوسيع عمليات التصفية في القاعدة للعناصر
الماركسية التي كانت مُعتمد وتذبح من رفاق السلاح في الجبال . اقول كان مجيء لومومبا عامل
ضغط آخر لارغام البورجوازية المتسللة لقبول السلاح « الاحمر » الذي كان لعدة سنوات مضت
مخيفاً ومرفوضاً .

وكان برنامج الصومام يهدف ايضاً الى تطمين البورجوازية أَلْتَّابَة . وايضاً لتطمين الاتجاهات
الاقليمية المادية للقومية العربية المناضلة ، والتي لم تكن راضية عن صلة الوفد « الخارجى » بها ،
وبالاخص على احمد بن بله الذي كانت قناعاته العربية المتحمسة تثير حفيظة الكثيرين عليه .
وربما قصد بيان الصومام ادانته هو بالذات عندما نَدَّدَ بها أسماء « النفوذ الخارجى » على الثورة
الجزائرية . وهذا التحفظ لم يكن يقصد منه الحفاظ على استقلال الثورة الجزائرية التنظيمي
والفكري الذي كان ولا يزال فريضة ثورية لا مساومة فيها . والذي لم يكن وقتها مهدداً في
شيء لا من مصر ولا من المعسكر الاشتراكي . ولم يكن تحفظاً من طبيعة السلطة الوطنية القائمة
في مصر التي كانت في الواقع غامضة واسيرة مفاهيم قديمة لم تفكر في محارلة التخلص منها الا
بظهور الميثاق عام ١٩٦١ . وانما كان تحفظاً من فكرة الوحدة العربية نفسها التي كانت ولم
تزل تثير نفور الاقليميين والضالعين في ركاب الاستعمار الجديد، الامريكي والفرنسي، في الجزائر.
اما بخصوص وضع مؤسسات الثورة الجزائرية فان مؤتمر الصومام كان الى حد ما، على الاقل -

نفس الوقت ، جهازاً بيروقراطياً وورقياً paperassier انفصل شيئاً فشيئاً عن واقع النضال وكانت غلطته ، بالأخص ، هي انه أدخل في تنظيمات القيادة شخصيات سياسية كانت ، على طول الزمن ، تعارض بضراوة الانتقال الى النضال المسلح ، والتي لم تحسَّ غداة نوفمبر ان تشجب علانية عملنا . بيد انها ، مع نجاح أسلحتنا ودعوة جبهة التحرير الوطني المؤثرة ، « تطور

→ ظاهرياً ايجابياً : فقد شكل المجلس الوطني لقيادة الثورة (٤٠٠ عضو) لكن تركيبه لم يكن يرضي دائماً الديمقراطية الثورية . كما شكلت أيضاً لجنة التنسيق والتنفيذ التي أنيط بها تطبيق مقررات المجلس . وشكلت هذه اللجنة من خمسة اعضاء هم : العربي بن المهيدي - الاستراتيجية العامة - عبات رمضان - التنظيم - كريم بلقاسم - الاتصال بين منظمات الحزب القادة والمكافحين - سعد دحلب - الدعاية والاتصالات - يوسف بن خده - الاتصالات السياسية .

العربي بن المهيدي اعتقله المظليون بالجزائر العاصمة ومات تحت التعذيب في نفس الفيلا التي تمذب فيها قيادة المقاومة الشعبية اليوم . ورغم ان تحديد اسباب اعتقاله لم يتم ، على نحو اجماعي بعد ، فهو بصدفة أم بخيانة ، فان هناك ظنوناً تحوم حول يوسف بن خده ، رفيقه في التنظيم ، الذي كان معه على موعد في المكان الذي لا يعرفه سواهما . وفي الموعد المضروب حضر بن مهيدي ليجد المظليين في انتظاره . ولم يحضر بن خده .

أما عبات رمضان فقد صفّاه في تونس كريم بلقاسم وبوصوف وزيرا الحكومة الموقته . وكريم بلقاسم أصبح « جلال » الثورة ومجرمها المحترف . ورأس دعاة الاقليمية والانفصال . وهو الآن ، فيما اعلم ، ممثل تجاري لشركة غربية في الجزائر .

يوسف بن خده ، هو الذي اصبح فيما بعد ، في غيبة العناصر الثورية ، التي كانت اما استشهدت ، او صفيت ، او رهن الاعتقال ، رئيساً للحكومة الموقته التي وقّعت اتفاقيات إيفيان مارس - اذار ١٩٦٢ ، والتي فتحت ، لولا حزم السلطة الثورية فيما بعد ، الباب على ملأه امام الاستعمار الفرنسي الجديد .

وهذا وحده كان كافياً ليجعل « الوفد الخارجي » للثورة وبالأخص بن بله وبوضياف يستقبلان انقذاً ونتائج وتركيب مؤسسات هذا المؤتمر بتحفظ . وكان من الممكن ان تقع ردود فعل حاسمة لولا حادث اختطاف طائرة بن بله الشهيرة .

هؤلاء الانتهازيون الى الأبد ، وقفزوا الآن في القطار السائر لينتفعوا بهذه الثورة التي احتقروها في البداية .

إن التبلبل الفكري والتناقض وانعدام المبادئ الصارمة والاستراتيجية الثورية المدروسة كلها تربعت على رأس جبهة التحرير الوطني . وأسرُّنا بعد بضعة شهور من المؤتمر ترك المجال حراً لسياسيين مصابين بمرض الطفولة اليساري « Gauchistes » او محافظين ، لم يكن لهم في الواقع أي استعداد لقيادة ثورة .

وهكذا ارتكبوا ، في قيادة الحرب الثورية ، أخطاء شبه كارثية ، ولم يعرفوا تقييم دور كل من المدينة والريف تقييماً صائباً ، في قيادة حرب العصابات . لم يدركوا ان سكان المدن بما انهم يعيشون مندجين في العدو ، ان صح القول ، ومختلطين به ومطوقين بجهازه القمعي الضخم ، فانهم ، بأي حال من الأحوال ، لم يكونوا قادرين على الانتفاض الجماهيري عليه ، من غير أن يعرضوا أنفسهم لسحقه ، وشبكاتهم لتصفيته وأجهزتهم لتهديته ومناضليهم لقتله وسجونه . ولأنهم لم يدركوا هذا ، فانهم في حركة جنونية أمروا بشن معركة الجزائر العاصمة ضد فرق جيش الاحتلال . وكما هو معروف ، فقد انتهت المعركة بهزيمة ساحقة لنا ، فأطاحت بتنظيمنا البلدي - Urbaine - وامتد تأثير هذه الهزيمة الى الريف فعزل وأضعف حرب العصابات فيه .

ثمّة اجراء آخر يحمل طابع المزايدة اليسارية الزائفة : اضراب المدارس . ففي يوم معلوم انسحب تلاميذنا من المدارس الفرنسية امثالاً لأوامر جبهة التحرير الوطني . وتوقف طلبتنا عن متابعة دروسهم واجتياز فحوصهم في الجامعات الفرنسية . انه اجراء أخرق لم يضائق الخصم ولم يضر به في شيء

وانما أضربنا نحن ضرراً عميقاً ، إذ في اللحظة نفسها التي كانت فيه حاجتنا للاطارات المتعلّمة تزداد ، أفقد هذا الاجراء تلاميذنا وطلبتنا ، وبالنتيجة الدولة الجزائرية المقبلة ، شهوراً وسنوات من العمل .

لكن المأخذ الأشد خطورة الذي اوجهه للتنظيمات القيادية التي أوجدها مؤتمر الصومام هو تركها الولايات^(١) بدون سلاح ، وبدون أدوية ، وبدون نقود . أعرف تماماً ان شبكات الخطوط المكهربة جعلت الوفاء بهذه المهمة بطريق البر أكثر صعوبة . ولكن به بقي التهريب بطريق البحر ومئات الكيلومترات على الساحل التي كان يمكن استغلالها لتموين الثورة .

لقد أصيبت الولايات التي كانت متروكة ، محرومة من السلاح ومن التدريب ، بانهيار كان من الممكن تلافيه ، فانطوت على نفسها بدون رابطة اتصال بالخارج ، وأحياناً ، بدون رابطة اتصال فيما بينها . وظلت تعيش في اكتفاء ذاتي في جهات أخذت تعتبرها إقطاعات - Fiefs - حيث انتهى الأمر ببعض القادة العسكريين الى اكتساب عقلية الاقطاعيين او رؤساء العصابات .

مهما أدنى ، والولاية^(٢) ، وعواقبها الوبيلة عند الاستقلال ، فانا لا نستطيع أن ننفي القول حقه عندما نقول ان المسؤولية الأولى في هذه التصرفات الشائنة لا تتحملها الولايات نفسها التي كان لها على الأقل ، فضل خارق للعادة هو مواصلة النضال في ظروف عصبية . بل يتحملها جهاز بيروقراطي ، تكرر لعمله الدولي ، والمنافسات الشخصية ، ولم يُعَرِّه اهتماماً كافياً لمحاربي القاعدة .

(١) الولاية هي المنطقة العسكرية في الثورة . - المترجم -

(٢) نزعة ولدت بعد الاستقلال في الولايات التي كانت كل منها تتصرف كما لو كانت دُولية .

- المترجم -

اعود الآن للحديث عن أسري . ففي يوم ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦ ، ضلّت الطائرة المغربية التي كانت مخصصة لنقل المسؤولين الهامين بالخارج وانا نفسي من الرباط الى تونس - ضلّت طريقها بمشاركة قيادتها الفرنسية ، امتثالاً ، لأمر أنفذَ اليها بالراديو من قيادة اركان الجيش الفرنسي بالجزائر . ونزلت الطائرة بالعاصمة الجزائرية . وكان بانتظارنا سِرْبٌ من المصفحات وافواج من الدركيين.

هذه هي الوقائع . ولتثمينها ، فانه من الضروري وضعها في مكانها من المضمون الاساسي لتلك الفترة ..

كنا دخلنا في اتصالات مع حكومة الرئيس « غي موليه » ، منذ عام ، لمحاولة وضع نهاية لحرب الجزائر باتفاق تتفاوض عليه . وقد اجرينا خمسة من هذه الاتصالات : واحداً في القاهرة ، واثنين في بلغراد واثنين في روما .

وفي آخر موعد في روما، استغرق جزءاً من شهر سبتمبر - ايلول - ١٩٥٦ ، لم يكن مفاوضات السيد كومين ، اذا لم تخني الذاكرة ، عضواً في الحكومة الفرنسية ، ولكنه كان سكرتيراً مساعداً للحزب الاشتراكي الفرنسي ؛ لقد كان اذن وثيق الصلة بالرئيس غي موليه . وقد تسلم منه كل التفويضات الضرورية .

في سبتمبر انتهينا أخيراً الى اتفاق ، وقررنا ان يعود كل منا الى بلده لتوقيعه بصورة نهائية . وبعد ذلك نعود الى روما لاتمام المفاوضات بصورة فعلية وعلنية .

وكانت عودة كل منا الى بلده ، تعني بالنسبة لنا الحصول على اذن بالمرور لأثنين منا ليدخلا الى الجزائر ونحيط مناظلي الداخل علماً بالشروط التي قدمت لنا . واندھشنا لرؤية حكومة غي موليه تتلددُ كثيراً . انها

بوضوح ، لم تكن متأكدة من جعل عسكريها يأتمرون بأوامرها . بيد انه استجابة لألحاحنا ، وعدتنا باعطاء جوازات مرور .

كنا اذن نفكر اننا على ابواب السلام ، عندما دبر لاكوست والعسكريون ، بدون علم الرئيس غي موليه ، هذا العمل اللصوصي العالمي الذي دعوه « ضربة الطائرة » .

ووضعوا الحكومة الفرنسية امام الامر المقضي ، وضُغفاً منها قبلته . وهكذا استسلمت امام العسكريين دافنة بيديها السلام الذي ترغب فيه ، ومُدينة ، في نفس الوقت ، والى امد بعيد ، المؤسسات التي انتجتها . كم من دماء وآلام كانت ستدخر لو كانت اكثر حزمًا ! كان الجزائريون سيقصدون ستة اعوام من الحرب ومن الخسائر الفادحة التي سببتها لهم . وفرنسا ، من جهتها ، كان يمكن ان تتفادى الهزات الرهيبة التي قادتها الى شفا الخراب الذي تكاد لا تنهض منه .

* * *

إن تسلسل الاسباب التافهة ، ظاهرياً ، التي تفسر حضورنا في هذه الطائرة في ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦ جدير بان يُرسم ثانياً ، ففي إثر محادثات رومة مع رسول الحكومة الفرنسية ، تم الاتفاق على ان نعقد في تونس العاصمة اجتماعاً تشارك فيه دول افريقيا الشمالية الثلاث : فبدافع اللياقة والصدقة كنا نرغب في ان نخبر المغرب وتونس ، اللذين ساندوا جهود الثورة الجزائرية ، بشروط السلام التي عرضت علينا .

عقدنا سلفاً اجتماعاً للمسؤولين في مدريد . واثناء اقامتنا بالعاصمة الاسبانية قدم الينا رسول من مولاي الحسن وأعلمنا بان السلطان يرغب في رؤيتنا في

الرباط فيما يخصني على الاقل لم يسرني مشروع هذا السفر ؛ فقد كان المغرب ما يزال تحت احتلال الفرق الفرنسية ، واليد الحمراء ، التي شهرت نفسها فيما بعد بارتكابها على ترابه اغتيالات شهيرة ، كانت قد برهنت على نشاطها القوي . ورغم هذا كنا نشعر باحترام للسلطان اقوى من ان يجعلنا نتملص من دعوته .

وفي الرباط اتفقنا على ان نذهب الى تونس برفقة محمد الخامس لنعقد ندوتنا المغربية . إذا كانت الطائرة مغربية فان قيادتها ، كما سبق ، كانت فرنسية . ولكن حضور ملك المغرب في الطائرة نفسها بدا لنا انه يشكل ضمانا كافية لكن ، لسوء الحظ ، أشعنا القصر بأنه ، لعدم توفر المقاعد ، فاننا لم نكن نستطيع أن نصعد في طائرة صاحب الجلالة ، وبأن طائرة ثانية ستوضع على ذمتنا . استأث كثيرا من هذا الخبر . ولكننا كنا في يوم ٢٢ اكتوبر : واجتماع تونس العاصمة كان محدداً ليوم ٢٣ اكتوبر . ولم يكن الوقت يسمح بالقدوم الى تونس عن طريق مدريد . فقبلنا اقتراح القصر . كنا نتصور في ذلك العهد ان السلام كان على الأبواب ، وان الحكومة الفرنسية التي كانت تبدو شديدة الرغبة في إفضائه ، لا تستطيع ان ترضى بتخريبه ، بالسباح لعملية تدبر ضدها ، وهذا ما كان في النهاية خطأنا . لقد بالغنا في تقدير حكومة الخصم : في التحام وولاء الوزراء والعسكريين لرئيسهم وكفاءة هذا الرئيس في جعل أوامره تُسمع وتُطاع .

كنا نعتقد بأنه كانت لنا كل الاسباب الباعثة على الامن . ولكن الغريزة ، وهي في مثل هذه المواقف ، أفضل مُشير من العقل ، لم تدعني في ارتياح . وفي اللحظة التي كانت فيها طائرة - D. C. 3 - التي ستقلنا الى تونس تُقلع من مطار الرباط ، أحسست بتخوف وهمست به الى خيضر فأخذ في الضحك قائلاً لي في لجاجة : « أوه ، انت ، انك تتحذر دائماً » . وأعتقد انه أخطأ

هنا . لأنه ليس من طبعي ان اكون دائماً على حذر . فرغم اني أحمل مسؤوليات ثقيلة وانني هدف لاحقاد كثيرة فاني ابعد ما اكون عن الحذر الكافي الذي يجب أن يكون عندي .

في تلك اللحظة ، مع هذا ، كنت حذراً . ولكن بعد فوات الوقت . وازداد تخوفي في الطائرة عندما لاحظت تصرف المضيفة . ولما وصلت وضعت مسدسي في علبة المقعد الذي كان أمامي . ولست أدري ما اذا كانت قد رأت حركتي ، ولكنها دارت لحظة طويلة حولي ، ثم انتهت بوضع يدها على القفل السريع للعبة ، فأوقفتها قائلاً لها بخشونة :

- اتركه ، لقد وضعت هنا اشيائي .

فانتصبت ، في اضطراب شديد ، ودون ان تنبس ببنت شفة انطلقت نحو غرفة الطائرة ، وأدركت انها ذاهبة لتقديم تقريرها .

علمت فيما بعد ان الخصم قد اتصل بقائد الطائرة الفرنسي وطلب منه ان يهبط في وهران ، وقد رفض القائد في البداية . حتى انه اعلم السلطات المغربية بالاغراء الذي كان موضوعاً له . وأمرته الرباط بالعودة فوراً الى المغرب . فما الذي حدث اذن ؟ هل ان الرد لم تلتقطه الطائرة ؟ ام ان السائق كان قد قرر تسليمنا لفرنسا ؟

مهما يكن من شيء . فإن الطائرة عندما هبطت للاستراحة في بالمادوماجورك^(١) Palma Demajorque كانت الرباط تعرف ان محاولة لاختطاف طائرتنا قد حصلت . هل كان القصر ، في غيبة الملك ، بدون مبادرة ؟ إن ذلك ممكن كثيراً . لأنه كان يستطيع ، فيما يبدو ، ان يطلب

(١) من جزر اسبانيا . - المترجم -

في تلك اللحظة من السلطات الاسبانية بان تمسك الطائرة التابعة له في مطار بالما .

حسب ما عرفته فيما بعد ، فان ما جعل قائد الطائرة الفرنسي يتردد طويلا كان خوفه من تعريض عائلته ، التي كانت تسكن المغرب ، الى الانتقام . ولم يستسلم ، فيما يبدو ، للضغوط القوية التي كان ، بالراديو ، موضوعاً لها الا عندما أعطته قيادة الأركان الفرنسية الضمان بان عائلته ستوضع فوراً في حماية من طرف المصالح الفرنسية في المغرب . وهنا ، وهنا فقط ، قرر تسليمنا .

إن عواقب اعمالنا غالباً ما تفجر بعيداً عنا احداثاً لم نتوقعها . فالقائد الذي طمئن على مصير عائلته الخاصة لم يسمح لنفسه بالشك بان عائلات أخرى فرنسية ، جرفها غضب الجماهير المغربية الجامح امام الشتيمة التي تعرض لها ملكها ، ستدفع ثمن قراره من حياتها البريئة .

* * *

بعد قليل من استراحة بالما ، بدا لي ان الطائرة لم تكن تتبع طريقها العادي وانها كانت تتنحى كثيراً نحو الجنوب . قلت ذلك للمضيف ، فاضطربت من جديد وأجابت :

– من الممكن اننا نأخذ طريقاً أكثر استقامة .

فوثبت : – كيف اكثر استقامة ؟ هل سنمر اذن فوق التراب الجزائري ؟ قالت لي على عجل : – كلا .. كلا . ولكننا نستطيع ان نأخذ اقصر طريق ..

اترك وصف مشاعري عندما لحت بعد الهبوط أن الطريق « الأكثر استقامة » كان يمر بمطار الجزائر . وانتصبت ، مثلاً من الغضب ، وأخذت

مسدسي من العلبة ، فقال لي احد اصدقائنا وهو يضع يده على ساعدي :

- لا . لا . لا . دع سلاحك حيث هو . لا تعطهم هذه الذريعة الجيلة ..!

اعتقال في مطار الجزائر.. كم كان انتشار الجنود هناك لأسر خمسة رجال! كان في الطائرة فرنسيان : ايف ديشامب Eve Dechamps من جريدة فرانس - اوبسر فاتور، وكريستيان داربور Christiane Darbor . وقد استشاطا غضباً من القرصنة التي شهدتاها . واخذتا تشتان بعنف بالغ رجال الدرك الذين افقوهما بعد ان اساؤوا معاملتها بما فيه الكفاية وادخلوها معنا في نفس سيارة الشحن . ولكن هذا لم ينل من شجاعتها واستمررا محتجان .

كان جو مشؤوم يسود السيارة التي كانت تتقدمها وتتعبها دمدمة الدبابات وصفير الدراجات النارية . وكانت محشوة بالدركيين الذين كنا محصورين بينهم وكنا هدفاً لشتائمهم ، فلم نكن نستطيع ان نتحرك الا بصعوبة بالغة . كنا مقتنعين باننا سنقتال بالشاركة الصامتة من السلطات الاستعمارية، ولهذا صمتنا ولم نشأ ان نبذر اللحظات الاخيرة من حياتنا في كلام لا نفع فيه .

انتهى صمتنا بفرض نفسه على الحراس الذين صمتوا هم ايضاً . وفي هذه اللحظة اقتربت مني ايف دوشان ودون ان كفوه بكلمة امسكت باحدى يدي وضغطت عليها . هذه البادرة المتناهية في البطولة والكرم لا توجد في أية لغة « كلمة شكر » جذيرة بها .

في مركز الشرطة القضائية بالابيار استنطقنا على التعاقب من جميع افراد البوليس الذي كان في تلك اللحظة موجوداً بالجزائر . والله يعلم كم كان عديداً ! ثم جاء دور العسكريين فتقدم لواء Général لرؤيتنا . وكنت أجهل اسمه . ولم يقدم نفسه لأسراه . كان يريد بالخصوص ان يعرف كيف نرى منظورات النضال

الآن بعد وقوعنا في الأسر . وبوغت عندما رأنا متفائلين جداً .

كنا في يوم ٢٩ أكتوبر وكانت فرنسا وانجلترا قد هاجمتا مصر ، فزارنا عقيد ، آه كم كان العقداء مشؤومين على الجزائر ! وبالرغم من انه كان يتمتع بهيأة رجل شجاع فانه شرح لي بان فرنسا وبريطانيا ستصفيان حسابات ناصر ، بعد ان صُفيت حساباتنا نحن . وبالتالي لن تبقى في مصر والجزائر ثورة . وسيمود كل شيء الى النظام . كنت أشاهده مندهشاً : احياناً كم يكون الرجل العسكري غيباً !

وسمحت لنفسني ان اشرح له بدوري ، بان ثمة « قوى » غير « القوة » : هناك الرأي العام . والوضع الدولي . ومطامح الجماهير . وقلت له ان الثورة الجزائرية تجاوزت المرحلة التي يرتبط فيها مصيرها بمصير اربعة أو خمسة مسؤولين ، وبأن شيئاً لم يكن قد بلغ نهايته . بل بالعكس ان كل شيء كان في بدايته ، فزهز رأسه استخفافاً . وكان دائماً يعود لنفس نقطة البداية : لم يعد هناك ناصر ولم يعد هناك بن بلة ، اذن ، سوّيت المشكلة .

كان موقف البوليس منا ، خلال الثمانية او العشرة ايام التي قضيناها في الجزائر ، مقيتاً . فقد كان الشرطيون يوسعوننا سخرية . ولم أزل أذكر ان احدهم ، بمحضر الصحافة ، التي 'عرضنا أمامها ، دعائي مستخفاً : « سيدي رئيس مجلس الوزراء ، واغتنمت فرصة حضور الصحفيين للاحتجاج على الاهداءات التي كنا يومياً موضوعاً لها . ومضيت الى القول : بانهم بالتأكيد قادرون على قتلنا خلال « محاولة فرار » ولكن لا شيء من التهديد ولا من الشتائم يمكن ان يوهن اصرارنا ، واننا لسنا خائفين لا من الأسر ولا من الموت ، وان الثورة ستستمر بدوننا . وستنتهي الى النصر .

كان الصحفيون الذين يستمعون اليّ يبلغون الاربعين، ولكن واحداً منهم لم ينشر كلماتي . وهكذا كان لي كل الوقت الكافي لارى عياناً « الموضوعية » الشهيرة للصحافة الغربية ، بل إن بعض الصحف ذهبت الى حد تحريف كلامي فخفضت كل تدخلي الى مستوى نكتة حقيرة فكتبت : « اشتكي بن بله عندما دعاه احد الشرطين سيدي الرئيس » .

بعد عشرة ايام، أُعطي الامر باحالتنا على سجن لاسانتي LaSanté بباريس . وقد سافرنا اليه بالطائرة وايدينا مثقلة بالاصفاد . وكان كل واحد مخفوراً بدركيين . ولا شك ان هولاء قد تلقوا تعليقات جد صارمة . لأنهم لم يفوهوا بكلمة حتى لاجابة احداً عندما لاحظ مراراً بأن رِسْنَفِيْنَه كانا مضبوطين كثيراً .

في لاسانتي أُخضعنا في البداية لنظام رقابة صارمة . فطوال اربع وعشرين ساعة على اربع وعشرين ساعة، كان مضراع النافذة الصغير يفتح كل دقيقتين لتمكن عين احد الحراس من رَصْدِنَا وقد علمنا فيما بعد ان سلطات السجن كانت تخشى ان تنتحر ... فيا للجهل الذي لا يصدق بعلم النفس الذي تفضحه هذه المخاوف ! إن الثوري الحقيقي لا ينتحر . ذلك انه يعبر عن اعمق رغباب شعب برمته، فهو لا يستطيع ان ييأس من نصره ...

بقيت ست سنوات في السجن . ست سنوات ... إنها فترة جد طويلة . ولكني لا اتأسف عليها ؛ فقد انضجتي كثيراً وقوّتني . ليس كالسجن مكاناً شريفاً للمناضل السيء الحظ . انني اليوم ايضاً على استعداد للعودة اليه بدلا من ان اخون القضية التي اخدمها .

بالنأكيد كانت الفترة الاكثر قسوة من أسْرِنَا هي السنتين والنصف التي

قضيناها في لاسانتي ثم في مارس (اذار) ١٩٥٩ حولنا ديفول الى جزيرة اكس Aix ' حيث تحسنت شروط حياتنا .

ومن جزيرة اكس حولنا الى ضفاف لالوار Laloire حيث عشنا في تيركان Turquant من مارس ١٩٦١ الى نهاية ديسمبر من نفس العام . وآخر مكان اقامتنا كان أولنوا Aulnoy ومنه تابعنا بواسطة اصدقائنا في الخارج مراحل مفاوضات إفيان .

ولقد قمنا باضرابات جوع كثيرة خلال فترة اعتقالنا ، لم يكن لها جميعاً الا هدف واحد : هو ان نؤمن لاختواننا ولنا حقوق المعتقلين السياسيين .

وخلال كل اضراباتنا عن الطعام كنا نشرب الماء . فالمرء لا يستطيع ان يعيش طويلاً بلا ماء . اذ ان على المناضل المضرب ان يعيش مدة اطول للفت انتباه الرأي العام ، وإقلاق السلطات والتأثير على قراراتهم . ان المضرب عن الطعام من طينة خصوصية . انه لا يهدف الى قتل العدو بل الى قتل نفسه لتلطيف العدو بالعار . انه بانتحاره البطيء يرمي في وجه عدوه بموته المقبل . وفي تيركان دام آخر اضراب عن الطعام اثنين وعشرين يوماً ، وانتهى بالنسبة لنا ، في مستشفى دوغارش . كان صياماً تضامنياً . لان دوبري Debré حاول الرجوع عن الحقوق السياسية الممنوحة لمسجونينا السياسيين ، في بعض السجون ، وفي حركة اجماعية شن خمسة عشر الف جزائري ، بما فيهم النساء

(١) عندما اعلم ديفول مجلس الوزراء بهذا التحويل قال له غيومات : « بيدو جنرالي انه من واجبي ان انبهكم الى ان الجيش وفرنسيي الجزائر لن يفهموا هذا الاجراء بدون شك .. » فقاطعه ديفول بقوله : « كانت عندنا دائماً اجراءات رحمة . اما الجيش فانه وجد لطيف . اما فرنسيو الجزائر فانهم فرنسيون كالأخرين ، وكالأخرين يجب عليهم الامتثال للحكومة » . هذه الفقرات ساقها كلود باليات في « الملف السري للجزائر » ج - ١ - ص ١٧٤ .

اضراب الجوع في نفس اللحظة . ولم يقع اي إخلال . انه لشجاعة عجيبة
عندما تفكر بهول التعذيب وهول الاخطار التي يجرها على المعنيتين الحرمان
من الطعام .

واحدى الوقائع الاكثر اثارة للعجب في اسرنا هي ، انه بقوة الاشياء ،
اصبح حراسنا هم ايضاً المدافعين عنا . في الواقع كنا في خطر دائم . كان
المتطرفون الفرنسيون يحدون فضيحة في بقائنا على قيد الحياة . وكانوا يتآمرون
لاختطافنا واعدامنا .

فغداة ١٣ ماي ١٩٥٨ ^(١) اغتنتم احدى لجان « الانقاذ العمومي »
فوضى الساعة وتقدمت لسجن لاسانتي لـ « أخذنا في عهدها » فقبولت بالرفض
الصريح . ولم تكن تريد ان تغامر بجلدها لتحصل على جلدنا ، ولذا انسحبت .

استمرت محاولات التآمر علينا . في فترة ما ، بجزيرة اكس ، كان يحرسنا
مثنا دركي متنقلون . وكانوا يتخذون احتياطات مشددة . ولما استغربنا ذلك
منهم ، لم يكتفوا عنا انهم كانوا مكلفين بالمحافظة على حياتنا اكثر منهم بالحيلولة
دون فرارنا .

وفي تيركان ثم أولوا ، كلما تقدر "سلام كانت الشائعات الاكثر بعداً عن
التصديق تروج . كان يقال ان منظمة الجيش السري - O. A. S. كانت
تحضر ضدنا هجوماً مشهوداً . وفي وقت ما تحدث البعض عن قذائف روكات
Rockets القيت من طائرة . ولست ادري اذا كانت الحكومة الفرنسية قد
اشعرت المدفعية بضرورة حمايتنا . ولكن يقظة الدركيين المتنقلين الذين

(١) تاريخ التمرد العسكري الذي قام به الضباط الفرنسيون في الجزائر فاطاحوا بالسلطة
المدنية وسلموا الحكم للجنرال دوغول .
- المترجم -

يحوطننا كانت ناجمة . اما نحن فلم نبق بدون نشاط . وبفضل اتصالاتنا بالخارج نظمنا فرقاً فدائية كانت على استعداد للصدام عند اقل استنفار .

وفي النهاية لم يحدث شيء . وكان الضحية الوحيدة ، كما نعرف ، رجلاً لم تكن له اية صلة بالثورة الجزائرية : السيء الحظ شيخ مدينة ايفيان . Evian .

وطوال الوقت الذي استغرقه اسرنا ، كانت الانباء التي تصلنا من الخارج تحزني بعمق ... وبالتأكيد كان لا بد من تأليف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، ولكن كان ينبغي تحديد صلاحياتها ومدتها ، بدون اقامة جهاز كان يمسح يوماً فيوما الى ، وظيف^(١) سياسي Mandarinat Politique . ان الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كانت في الواقع تتصرف كحكومة ووزرائها كانوا يمثلون دور الوزراء ، وكانت مهمة بالنضال الدبلوماسي اكثر بكثير من اهتمامها بانداءات النجدة ، اليائسة في الغالب ، والآتية من محاربي الداخل .

وابتداء من هذه اللحظة وجِدَ ، جنباً لجنب ، واقعات في الثورة الجزائرية : احدهما كان متناهماً في القسرة وهو واقع محاربي الداخل ولاجئي الحدود . والآخر كان واقعاً زاهياً وممتازاً هو واقع بعض وزراء الحكومة المؤقتة . هؤلاء كانوا يعيشون كما كانت تعيش بعض الانظمة الافريقية التي افضل عدم ذكرها ... باختصار ، كان كل شيء مُعَدَّاً لكي يُنصَّب غداة

(١) في القديم كانت لفظة ماندرينا تطلق على طراز مخصوص من كبار الموظفين الموقرين في الصين . ويقصد به في الاستعمال الحديث فئة : البيروقراطية المتسلطة بوسائل الحول والحيلة على اجهزة في اساسها سليمة او ثورية . وترجمتها بوظيف اجتهد شخصي قابل للمراجعة . - المترجم -

التحرير ، ببركات واسعة وتواطؤات لا تحصى ، نظام 'حكم سهل ومتعفن' ،
كان سيترك الشعب الذي حارب غارقاً في بؤسه .

ليس سرّاً على احد اني كنت في البداية مناوراً لاتفاقيات إفيان . لاني
وجدتها ظالمة . بيد اني قبلت توقيعها عندما حُسِّنت وفاقاً لاقتراحاتنا؛
ووضعت شرطاً آخر لموافقتي : ان تلتزم الحكومة الموقتة بعقد مؤتمر اثر
ايقاف اطلاق النار لتحديد الخط السياسي للحكومة المقبلة .

من الصعب ان يصدق المرء ان اطلاق سراحنا كان موضوعاً لخلاف جدي
بين الحكومة الفرنسية وبيننا . لأن ديفول كان يريد ، بلباقة ولباقة ازاء
المغرب ، ان يضعنا بين يدي الحسن الثاني . وقد رفضت كلياً ذلك . لقد
'لدغت مرتين . ولن اطير ، من جديد ، في طائرة فرنسية ، تعبر الشمال
الافريقي . وأصرّ قصر الرئاسة الفرنسية واصررت انا ايضاً . وقلت لرسوله:
'هل انا طرد ، هل انا شيء لكي يعاد وضعي في المكان المعين الذي
اخذت منه ؟ كلا . كلا ، سأختار المكان الذي سأذهب اليه ، وأريد ان
اذهب الى سويسرا ، لا الى المغرب . '

دامت المناقشات خمسة ايام . وفي لحظة ما ، 'هددنا بان 'نؤخذ عنوة'
- Manumilitari - ونُسلم كارهين للرباط . وفي النهاية تخلى قصر الرئاسة .
وكان ذهابنا من أولوا في ١٩ مارس - آذار - ١٩٦٢ قد نُظم باحكام . فقد
خرج الركب الاول ولم نكن فيه . وانما كان هدفه خدع الصحفيين ومن
المحتمل ايضاً خدع منظمة الجيش السري . اما الركب الثاني ، فقد اوصلنا
بطرق ملتوية الى مطار أورلي ORLY .

عشت خلال ست سنوات معزولاً عن العالم ، بدون نوافذ على الخارج .

ولكن العالم اثناء غيابي كان قد تحول ، والتيكنيك الفرنسي كان قد سجل
تقدماً . لقد انبهرت بطائرة كارافيل Caravelle - التي اخذنا فيها
امكنتنا . لقد اعجبتني الطائرة من الوملة الاولى باناقة خطوطها . وعندما
تحركت للاقلاع احسست بانفعال رائع بالقوة وبالتحليق الذي يمتزج ، تقريبا
في فكري ، بانتشائي بحريتي المستعادة .

الفصل السادس

غذاء الاستقلال

منذ نزولنا يجنيف اخذنا السويسريون على عهدتهم وقادونا الى سينيال
دوبوجي حيث كانت الحكومة الموقته بانتظارنا. وتقع سينيال دوبوجي تجاه
افيان المنتصبة في الجانب الآخر من البحيرة، حيث دارت المفاوضات. وكانت
سينيال دوبوجي قلعة حقيقية تحوطها الاسلاك الشائكة ، ويحرسها الدرك
السويسري ، وتحوم فوقها بدون توقف طائراته العمودية .

كان هذا بعد ست سنوات من السجن اول لقاء بالواقع الذي وجدناه
مريراً . أما السادة اعضاء الحكومة الموقته فلم يكونوا اطلاقاً مسرورين بلقائنا
الذي كان قلبياً على السطح ومثلجاً في الاعماق . ولم اقض الا يومين او ثلاثة
في سينيال دوبوجي التي كان يسود فيها جو خائق من الدسائس . لقد كان
كل شيء نظرات منحرفة ، وضحكات زائفة ، ومهملات .

بيد ان المغرب كان يطلبنا . وقد استأجر خصيصاً طائرة بوينج لنقلنا
اليه . ولكن في آخر لحظة ظهرت صعوبة . ذلك ان الحكومة الفرنسية، التي
لم تغفر لنا أننا فوتنا عليها مبادرتها المتأدية نحو السلطان ، حظرت على
طائرتنا البائسة الطيران فوق التراب الفرنسي . فكان علينا اذن ان نمر

بايطاليا وان نعبّر البحر الأبيض من الشرق الى الغرب .

ومن المغرب حيث كان استقبال الجماهير لنا ممتازاً ، ذهبنا الى مصر حيث كان استقبالنا رائعاً ، اما في العراق فقد كان فوق حدود الخيال ... ولكن هذا الاستقبال الودي لنا كان يحمل اشواكاً لقاسم . لأن الجماهير كانت تضيف للهتاف لنا هتافاً ضد قاسم . ومن المطار الى القصر كان مدّاً بشري لا يُرد قد نجح في محاصرة سيارتنا . وقد تمدد البعض على مقدمة السيارة والبعض على مؤخرتها وآخرون ملتحمون بالزجاج الجانبي وهم يهتفون ، مقطعي الجبين ، بشعارات عدائية لقاسم . ومن وقت لآخر يقطعون هتافهم ضده ليهنئونا ، والابتسام على شفاههم ، بنصرنا . ولم أر في حياتي قط جموعاً تنتقل بمثل هذا النشاط والرشاقة من الحب العام الى المقت العام .

وبعد هذا وضعنا قاسم في قصر معزولين عن باقي العالم . لقد كانت هو نفسه يعيش في اعماق ثكنة لا يخرج منها ووسط فرق الجنود التي لا يعرف هو نفسه ما اذا كانت لم تزل وفيّة له . لقد كان نظامه مثل دار من اللوح قرّضها من الداخل دود الخشب ، وهو نفسه كان ملفوماً بإثقال الهموم . لقد كان من المستحيل تقريباً الحصول على محادثة منسجمة ومتواصلة معه . لقد كانت تحركه عصبية لا مثيل لها ، وكان ينتقل من موضوع الى آخر كل عشر دقائق . كان يقوم ، ويهم بلا هدف في الغرفة ، وما يكاد يعود للجلوس حتى يقوم مرة أخرى . لقد كان واضحاً ان اعصاب هذا الرجل كانت مريضة . وربما عقله كان مصاباً ايضاً . فلم يعد يستطيع ان يسيطر على نفسه . اما مفاهيمه السياسية ، بالقدر الذي استطعت ان اصل الى فهمه منها ، فقد كانت مذهلة .

* * *

كما سبق ان ذكرت الحجت على ان تمعد الحكومة المؤقتة مؤتمراً فور حصولنا على حريتنا . لقد أعترف بسيادة الجزائر . ولكن هذه السيادة ليست الا شكلاً قادراً على احتواء مضامين مختلفة . وهذا بالضبط ما كانت نقطة الضعف في جبهة التحرير الوطني . اذ لم يكن لها لا منهاج مرحلي Programme- ولا مذهب والثورة الجزائرية كانت ثورة بدون ايدولوجية: هذه الثغرة التي سمحت ، زمن الحرب ، باتحاد الجميع الواسع ضد القوة الاستعمارية ، ولكنها بعد عودة السلام اصبحت فراغاً خطيراً ، لان اتفاقيات افيان كانت تشكل زواجاً من طراز استعماري جديد . وكان ، اذن ، لا بد التملص من مثل هذه الزيجات المفشوشة Sournoises Épousailles - التي وجدها بعض اعضاء الحكومة المؤقتة مطمئنة لهم . وكان لا بد من اعطاء الاستقلال مضموناً يدعمه .

لقد اعددنا، في اولنوا، منهاجاً مرحلياً تفترض كل اختياراته بان الجزائر قد اختارت لنفسها ابنية اشتراكية . وللمرة الاولى استطاع ممثلو الداخل الالتحاق بممثلي الخارج للدرس والتشاور . وحضور هؤلاء المناضلين كان حاسماً لاختيار منهاجنا المرحلي . وفي الواقع لم يلقَ معارضة هامة ، لا لأن المؤتمرين كانوا جميعاً اشتراكيين ، بل لأن الذين لم يكونوا اشتراكيين كانوا بدون شك يفكرون بالبنون البعيد بين المصادقة على منهاج وبين تطبيقه .

ولكن الامور ساءت عندما بات واضحاً ان اصوات المؤتمرين ستنتخب مكتباً سياسياً لا يوجد فيه اي عضو من الحكومة المؤقتة . وتذرع هؤلاء بشجار نشب بين بعض المؤتمرين ليعلموا انسحابهم من المؤتمر واعتبروه لاغياً . ان وقاحة وسفاهة هذا الموقف تركتنا ، للحظة ، في ذهول . لأنه يعني :

« حسنًا . اننا ننصرف من هنا . وبانصرافنا فان شيئاً لم يحدث . واثناً لم نقترح على المنهاج المرحلي . وان المؤتمر لم ينعقد ... »

اصدقاؤنا الذين استقبحوا هذه المناورة ارادوا ان يعلنوا فوراً تركيب المكتب السياسي رسمياً . وفي البداية كنت الوحيد الذي عارض ذلك . ولكن رأبي انتصر في النهاية . لان منظمة الجيش السري كانت ما زالت جد قوية ، بالاحص ، في وهران ، حيث كان بعض اعضائها يريدون الانفراد بجزء من التراب الجزائري يعملون عليه حضورهم ابدياً ومن جهة اخري كان المجلس التنفيذي الموقت^(١) - الذي سميت اغلبية اعضائه من قبل الحكومة الفرنسية - يتصرف في قوة بوليسية محلية تتركب من ألنحر كَيْيَّة^(٢) Harkis والجنود القدامى في الجيش الفرنسي . وهذه القوة المحلية كانت ، من حيث المبدأ ، مرصودة لمحاربة منظمة الجيش السري ، ولكنها كانت تستطيع ان تلعب دوراً آخر لو انفجرت جبهة التحرير الوطني على مرأى من الجميع ومسمع ، الى زمر متنافسة تَقْتَتِلُ بلا نهاية .

ان انهاء مؤتمر طرابلس باعلان تركيب المكتب السياسي ومعارضة الحكومة الموقته به حتى قبل ان يسفر الاستفتاء عن اعلان الاستقلال كان سيخدم منظمة الجيش السري ويشجعها في احلامها بتقسيم التراب الجزائري ، ويشجع ايضاً المجلس التنفيذي الموقت على الاستمرار الطويل في السلطة ممثلاً دور الحكم .

(١) تنص اتفاقيات افيان على تكوين سلطة مرحلية تتولى تسيير الشؤون الادارية في فترة الفراغ التي تفصل بين ايقاف اطلاق النار مارس آذار - ٦٢ و اعلان الاستقلال ٥ جويلية - تموز - ٦٢ .
- المترجم -
(٢) الحركة هم الجزائريون المرتزقة الذين كانوا قوام الجيش المعادي للثورة . - المترجم

ولذا فقد تم الاتفاق على ان الصدع الذي لا يجبر والذي حصل في صفوف
جبهة التحرير الوطني ، والذي تتحمل مسؤولياته كاملة الحكومة الموقته ، لا
يعلم على رؤوس الاشهاد قبل نتيجة الاستفتاء . وهذا الاستفتاء باعلانه إستقلال
الجزائر المدعم بالارادة شبه الاجماعية للجماهير ، سيخلق ، من وجهة النظر
الداخلية ومن وجهة النظر الدولية ، وضعية لن تستطيع لا منظمة الجيش
السري ولا المجلس التنفيذي الموقت وضعها موضع الشك .

التحقت مع اصدقائي بالحكومة الموقته في تونس . واترك لكم ان تتخيّلوا
كم كان الاستقبال حاراً؛ ذلك لأنهم كانوا يشعرون بان القضية لم تحسم بعد.
وكانوا مصممين اكثر من الماضي على التمسك بالسلطة . ان الحكومة الموقته
للجمهورية الجزائرية التي اعترفت بها عدة دول ، والقوية بأجهزتها، وبعلاقاتها
مع الصحافة وبتواطؤها السرية ، كانت تريد استئصال الثورة لصالحها
وجعل منهاج طرابلس المرحلي ينال على الرفوف .

كانت الحكومة الموقته حذرة من جيش التحرير الوطني بسبب ما كانت تعتقد
انها تعرفه من بعض الاتجاهات التقدمية في قيادة اركانها، وحتى قبل الاستفتاء
فقد بدأت تسقط في الولايات رسلها الذين كانوا مكلفين إما بأخذ قيادتها وإما
بتحريضها على جيش التحرير الوطني باقناعها بانه عندما يدخل جيش التحرير
الى الجزائر فسينفذ حمله بانقلاب عسكري بقصد تصفية الولايات واقامة نظام
عسكري ... وهكذا كونت « المنطقة المستقلة » « La Zone Autonome »
بالجزائر العاصمة لمقاومة جيش التحرير الوطني ولمقاومتي شخصياً في نفس
الوقت ؛ وفي أيام معدودات امتلأت جدران القصبة بشعارات تندد ، على
سبيل الاحتياط ، بالعبادة المحتملة لشخصيتي ، مؤكدة بأن ليس هناك الا « بطل
واحد : الشعب ! »

وقد كنت ولا أزال على تمام الاتفاق مع هذه الصيغة ، مع هذا الاحتراز ، وهو ان الحكومة المؤقتة كانت تهتم قليلاً جداً بالشعب ، في نفس اللحظة بالذات ، التي كانت فيها ، بوقاحة ، تحتكم اليه ضدي .

كانت تصرفاتهم المشينة في الداخل تتميز بالاجراءات التي وضعوها في خدمة اسوأ رجعية . فعلى تراب الجزائر الذي لم يكذب يتحرر اوقفوا اكثر المناضلين شجاعة وشهرة : بوعلام ، جميلة بوحيرد ، وبطلاً لمعركة الجزائر العاصمة ...

وفي تونس كلما كانت الحكومة المؤقتة تتصلب في موقفها ، كنت أشعر بان عداها لي يتعاضد ، كانت حركاتي مراقبَةً . وباختصار كنت انتظر إغتيالِي . فقررت ان انجو بنفسِي . ودون تحذير ودون اشعار اي انسان ، ركبت ذات يوم طائرة مصرية خاصة كانت منطلقة من تونس وتأخر سفر الطائرة نصف ساعة ، وعلمت ، بعد ذلك ان الحكومة المؤقتة تدخلت لدى الحكومة التونسية لاعتقالي . ومن حسن الحظ ، رفضت الحكومة التونسية ، بحكمة ، الاقدام على ذلك .

التحقت بطرابلس وادركت ان اي قرار لم يكن ابداً اكثر صواباً من هذا القرار . لأن الحكومة المؤقتة قررت الانتقال الى العمل ضد جيش التحرير الوطني ، الذي كانت قد عزلت قبل قليل قيادة اركانها : العقيد بومدين واثنين من مساعديه . واحد هذين هو الرائد سليمان^(١) الذي كان في مهمة

(١) عيّنه بن بله قياً بعد وزيراً للسياحة ثم اقاله نظراً لسوء تصرفه بيزانيتهما . وأمرها في نفسه . فانضم لتأمري ١٩ جوان . وقد سمي وزيراً للمالية . وقد تمت تسميته كما لاحظت ذلك جريدة «لوموند» باختلاف شديد بين مدبري الانقلاب انفسهم .

بقسنطينة فاعتقل وكنت اخشى كثيراً على حياتي . ومن طرابلس نشرت فوراً بياناً يدين قرار الحكومة المؤقتة التمعفي .

وفي نفس الوقت علمت أن الحكومة المؤقتة كانت تحاول تسلم جزء كبير من السلاح كان مخزوناً على ذمتنا في ليبيا . وكان واضحاً أنها تريد ارسال هذه الاسلحة الى عناصر من الداخل عرف رسلها كيف يكسبونها لقضيتها ، فقررت في الحال ان اذهب لمقابلة ملك ليبيا . ووصلت الى مقره في البيضاء ، على مقربة من بنغازي ، في المنطقة الاكثر اخضراراً والاكثر فتنة في افريقيا . هناك صلات قديمة تربطني بالملك ، ورغم ان حكومته كانت تعاديني ، فقد نجحت في اقناعه بمحجز الاسلحة .

كان ذلك اخفاقاً للحكومة المؤقتة . وبعده عرفت اخفاقات أخرى : لم تنجح في اقناع الحكومة التونسية باعتقال العقيد بو مدين . وهذا الاخير رغم انه كان « معزولاً » فقد احتفظ على جيش التحرير بكامل سلطته . وغداة الاستفتاء اجتاز على رأس فرقه الحدود داخل الجزائر . وانا اعتقد - ولكن بدون ان استطيع تقديم البرهان - ان الحكومة المؤقتة قامت بمساع لدى الحكومة الفرنسية لكي تبقى الحدود ، حتى بعد اعلان الاستقلال ، مغلقة في وجه جيش التحرير الوطني .

عندما كنت في بنغازي ، علمت ان الحكومة المؤقتة ، قد اوفدت للاتصال بي كريم بلقاسم برفقة شخصية مصرية معروفة ، علي صبري . كان اصدقاءنا المصريون قلقين جداً من الانقسام الذي كان يتسع في صفوف جبهة التحرير الوطني ، وطلبوا مني ان اعود الى تونس . اما الحكومة المؤقتة فقد اكدت لي بالحاح ، بواسطة كريم بلقاسم ، باني سأزل فيها ، يا للمعجزة ! على الرحب والسعة ...

وبكل وضوح كان المصريون نزهاء بقدر ما كانت الحكومة المؤقتة بغير نزاهة. فقررتُ ان اذهب بنفسى لأشرح لعبدالناصر ما كان. فأخذت الطائرة الى القاهرة وقصصت عليه كل شيء : ان الحكومة المؤقتة ، بعد ان كانت تريد اعتقالى ، غير راغبة في هذا التقارب ، الا لأنها حكت باني وأنا بعيد اكثر خطراً عليها منى وأنا قريب . وبأنه فيما يخصنى لن اقدم ابداً كفالتى لقضيتها ، لان ذلك معناه دفن احلامي بتحسين مصير الشعب ؛ وان الحكومة المؤقتة عَبَرَ كل دسائسها كانت لا تريد ولا تجري إلا وراء هدف وحيد : لى عنق الثورة .

بعد وقت قصير اعطاني ناصر الحق . فلقد عرف هو ايضاً هؤلاء «الثوريين» الذين كانت كلمة الشعب دائماً في افواههم ، وفي الواقع ، لم يكونوا يفكرون الا في إدامة بؤسه وامتيازاتهم .

وفي هذه الأثناء تم الاستفتاء واقترح على استقلال الجزائر باغلبية واسعة . ولما كان الانعطاف الحاسم قد تمّ فانه كان ينبغي الانتقال الى الاعمال، وذلك يعنى الدخول الى الجزائر والتشهير بلاشرعية الحكومة المؤقتة .

كان خيضر في الرباط، وهناك اتصل بعناصر صديقة في المغرب نفسه وفي جهة وهران. وكتب الى : «الوضعية بلغت مرحلة النضج . اثنا بانتظارك» . وفوراً التحقت به في الرباط . ومن هناك ذهبت الى وجده ، لاني بعد عشرة اعوام من المنفى كنت اريد ان ادخل الى الجزائر مروراً بمغنيه ، مسقط رأسى .

كان الاستقبال في مغنيه وتلمسان وفيما بعد في وهران رائعاً . كانت الشمس محرقة . وكان الاستقبال قلبياً وحافلاً . وبوسع المرء ان يقول انه كان

حفلاً ضخماً . والكوادر التي انضمت اليها جاءت في سيارات لاستقبالنا ، ولما دخلنا وهران كنا وسط قافلة من مئات السيارات التي ظلت تطوف وتطوف في المدينة وسط الجموع الهادرة ، لمدة ساعات .

استقرّ المقام بنا أولاً في تلمسان ؛ ومنذ دخولنا شرعنا في حملة توضيح ، فدعونا كوادر الحزب وممثلي الولايات وشرحنا لهم ما حصل في طرابلس ، والطريقة التي غادرت بها الحكومة الموقته المؤتمر بعد الهزيمة ، دون ان تعترف باقتراحاته . بعد هذه التوضيحات وتبادل وجهات النظر ، نشرنا لأول مرة منهاج^(١) طرابلس المرحلي وتركيب المكتب السياسي .

وابتداء من هذه اللحظة . أصبح موقفنا قوياً جداً . اذ اننا أصبحنا نمتلك مكتباً سياسياً منتخباً من مؤتمر الحزب بصورة نظامية ، ومنهاجاً واضحاً للإصلاح ، ورضاءً شعبياً واسعاً . ومن جهة أخرى فان جيش التحرير الذي دخل الى الجزائر عبر الحدود التونسية قد تركز في جهة قسنطينة والاوراس ، ووهران ، وفي الواقع ، في كل مكان توجد فيه ولايات وفيّة لنا .

وفي هذه الأثناء كانت ريح من الفزع تعصف بالحكومة الموقته التي احست بأنها خسرت الجولة ، فأذعنت ، باستثناء اثنين من اعضاءها هما بوضياف وكريم بلقاسم اللذين حاولا بعث حركة مقاومة مؤسسة على الجهوية Particularisme القبائلية .

هذه الجهوية لا نكران لها ، ولكنها ، في نهاية كل حساب ، ليست شيئاً آخر غير إرث استعماري ، لان الادارة الفرنسية بذلت ، على مدّى

(١) في الجزائر يطلق عليه عادة برنامج او ميثاق طرابلس . وكلمة المنهاج المرحلي على طولها افضل وهي شائعة الاستعمال في الشرق العربي . - المترجم -

الازمان ، قصاراها لتؤب القبائل على العرب . ولم تصل الى اعطاء هذه الجهورية مضموناً سياسياً محدداً . والدليل هو انه عندما دقت ساعة العمل الثوري انضم القبائل^(١) بحماس للحركة المسلحة ومدوا الثورة ببعض من افضل عناصرهم . وأخفقت محاولة بوضياف وكريم بلقاسم بسرعة ، ولكنها كانت تحتوي بالقوة على بذور خطيرة في المستقبل .

* * *

ما كاد المكتب السياسي يستقر في الجزائر العاصمة حتى اصطدم بنحصر اكثر خطراً ، بما لا يقارن ، من الحكومة المؤقتة . لقد وضحت آنفاً كيف انه ، لانعدام قيادة مركزية حقيقية ، فان الولايات التي تخلى عنها الوفد الخارجي

(١) القبائل Les kabiles يطلق على سكان منطقة واسعة من التراب الجزائري تسمى هي الاخرى القبائل La kabilie او « برّ القبائل » على حد التعبير الدارج ، وهي منطقة جبلية ووعرة تتكون من القبائل الكبرى او قبائل جرجره الواقعة شرقي العاصمة ، وقبائل الباور ، وقبائل القل . وتتكون القبائل الكبرى من مجموعات جبال صخرية شفاقة مفصولة عن البحر بمرتفعات من الصلصال الصواني . وعلى تخومها الجنوبية تقوم شاذة السلسلة الكليسيّة من جبال جرجره . والقبائل الكبرى آهلة بالسكان . وتجنّم اكثر قراها على قمم الجبال ومشارف المرتفعات . ويتحدث سكانها اللغة البربرية . اما قبائل الباور فتتشكل من سلسلة جبال عجيبة تكسوها غابات منيرة .

اما قبائل القل التي تقع تماماً في الشرق الجزائري فهي عبارة عن مجموعة جبال صخرية موعلة في القدم وتغطيها غابات وادغال كثيفة من اشجار البلوط . وسكانها من اكثر ابناء الشعب الجزائري فقراً وبؤساً .

والروايات التاريخية بخصوص الانتماء المرقى لسكان منطقة القبائل شتى . فبعضها تدعي انهم او بعضاً منهم قبائل جرمانية تدفقت على افريقيا في فترات تاريخية مختلفة . وتؤكد روايات تاريخية اخرى بانهم قبائل عربية نزحت من اليمن . وقد اطلق العرب عليهم اسم البربر لكونهم ارتفعوا باصلهم الى « شام » من مازينغ و « برّ » ويطلقون على انفسهم اسم « إمرزغن » .

المترجم

للثورة قد اعتصمت في البلاد باقطاعات كانت تحكمها حكماً مطلقاً ، وكانت تريد الاحتفاظ بها. وما ان وصل اعضاء المكتب السياسي الخمسة الى الجزائر، العاصمة حتى وجدوا انفسهم ، ان صح القول ، سجناء في عالم لا سلطان لهم عليه . ولم تكن لهم الا سلطة اسمية . اما السلطة الحقيقية فقد كانت بيد الولاية الرابعة ، التي حولت نفسها الى جهاز دولة وكانت تتصرف في القوة المسلحة وفي الاذاعة وفي بعض اجهزة الادارة .

اضف الى هذا ، مواجهة الخطر الذي كانت تمثله « القوة المحلية » وايضاً خطر منظمة الجيش السري . وبعد اتفاقيات افيان تضخمت صفوف الولايات بشكل فائق ، والى جنب المناضلين المخلصين ، انتدبت عناصر «مريبة» ولا رقابة عليها . وهذه العناصر هي التي ارتكبت في هذه الفترة المناكرو والجرائم ضد الاوروبيين : زوجة القنصل السويدي أعتُدي على شرفها بمحضر زوجها ورُشّت سيارة القنصل الايطالي بالرصاص ، وذُبح بلجيكيان في غابة باينام ، وقتل معلمون فرنسيون ...

كان لا بدّ من انتهاء هذه الفوضى . وقد طلبت بالحاح من الولاية الرابعة ان تجلو عن العاصمة وان تسلم لنا ادوات السلطة . فرفضت. ونشر المكتب السياسي بلاغاً ندّد بموقفها وردت هي ببلاغ يهاجم مواقفنا؛ واستمرت حرب البلاغات بضعة ايام . ولكنه كان من الواضح ان الوضعية كلما دامت تدهورت اكثر . وعندئذ قرر المكتب السياسي دعوة جيش التحرير ليزحف على العاصمة ويعيد الولاية الرابعة الى الصواب. ولكنها من سوء الحظ لم تتخلّ عن مواقفها فوراً . فكان الصدام وأريق الدم .

وكنت حريصاً على ألا يراق الدم ، على الاقل ، في القبائل ، لاني كنت

أريد عدم تمكين الخصوم فيما بعد من استعمال ورقة الجهوية التي تحدثت عنها،
لخلق مصاعب لحكومة الجزائر . وقد احتلت بعض الفرق القبائلية ، رغم
أوامرنا ، بحماية التي كانت جزءاً من الولاية الثالثة . وبرجاء مني لم يتدخل
جيش التحرير ، وذهبت بنفسني إلى القبائل لاجت معهم عن تسوية تعيدهم إلى
النظام من غير أن تنال من معنوياتهم .

وبينما كنت أواجه هذه المشاكل ، كنت أسكن في فيلا جولي ، ومنذ
ذلك الحين لم أغادرها . إن جدرانها تذكرني بقوة بالأيام الأولى من عودتي
للجزائر العاصمة حيث كنت لا أكاد أنام إلا ثلاث ساعات كل ليلة وسط شغب لا
يصدق . في الواقع كنت أستعملها كمركز للقيادة - P. C. - كنا مئة رجل
تقريباً في حالة دوام متواصل ، ننام كما نستطيع في غرف بدون أثاث ،
نأكل أو لا نأكل حسب الأحوال .

في الصباح الذي تلا الليلة الأولى التي قضيتها في فيلا جولي ، لم أجد أحداً
في كل العمارة ليحضر لي فطور الصباح ، فدلتني أحدهم على أقرب مقهى .
وطلبت قهوة بالحليب . كان ذلك في الصباح الباكر . وكنت وحيداً على
المنضدة « الكونتوار » وعندما اقتربت مني صاحبة المحل ، وكانت فرنسية ،
قالت لي : « سيدي ، أستم أنتم بن بيه ؟ » قلت لها : « بلى ، سيدي ،
هو أنا » . وبينما كنت أشرب قهوتي كنت أتحدث معها . كانت تصغي إلي ،
وكانت تجيبني أو بالأحرى كانت تحرك رأسها . كانت تبدو مذهولة . وكانت
بوضوح غير قادرة على الملاءمة بين الصورة المروعة التي قدمتها لها صحافتها
وإذاعتها عني ، والصورة التي كانت أمامها . لاني كنت واقفاً ، وحيداً
وبدون سلاح ، على منضدتها . وكنت أتحدث إليها بلياقة ، وكان يبدو عليّ
أنني أحببت قهوتها ، وككل الناس كنت أدير ملعقي في الكأس لتذويب السكر .

عندما كان المكتب السياسي يستعد لدخول العاصمة ، كان خميسي^(١) هو الذي وجد لي فيلا جولي التي كان الموظفون الفرنسيون قد غادروها قبل قليل . لم اكن اريد في الحقيقة - ومهما كان الثمن - ان اسكن في قصر الصيف^(٢) الذي كان يبدو لي ان بذخه لا يليق بروح الثورة . اذكر عرضاً ، ان خميسي المسكين ، كان مدير ديوان فارس رئيس المجلس التنفيذي المؤقت ، وبواسطته كنا نحصل ، تقريباً ساعة فساعة ، على كل ما كان يجري في قلب هذه المنظمة التي كانت لنا بعض الاسباب للحذر منها .

ولم تكن هزيمة الولاية الرابعة واذعانها كافيين مع ذلك لقرع اجراس نهاية حكم الولايات Willayisme .

واذا كانت المدن الكبيرة قد اصبحت اكثر أمناً ، فان البوادي كانت تجوبها عناصر لا رقابة عليها مسلحة بالرشاشات . وتحت ستار الوطنية كانت ترتكب مناكر شنيعة . ولما أشعرت اخذت ادخل بدور توقف : تدخلت في الدار^(٣) البيضاء لتخليص معمرين فرنسيين كانت تحاصرهم عصابة . وفي مارانجو تدخلت لحماية مزرعة كان بعض الاشخاص يريدون نهبا . كنت ارسل بفصائل من جيش التحرير الوطني - البوليس الوحيد الذي كان في تصرفنا - ، ولكن هذه العناصر التي لا رقابة عليها ، كانت تعتقد أن كل شيء مستباح لها ، ولم تخش ، أحياناً ، من استقبال رجالنا بطلقات البنادق . وحصلت هنا وهناك اشتباكات عنيفة ، وكان لا بد لنا من

(١) محمد خميسي الذي اصبحت فيما بعد اول وزير للخارجية في اول حكومة للجزائر المستقلة ، وكان اصغر وزير خارجية في العالم كله . وبعد شهور اغتاله معتوه .

(٢) ساه بن بلته فيما بعد قصر الشعب ، وخصصه لاستضافة رؤساء الدول - المترجم -

(٣) خاصة بها مطار الجزائر .

بضعة شهور أخرى لتصفية عقابيل حكم الولايات .

بيد ان الدولة الجزائرية التي لم تكن ، غداة الاستقلال ، إلا وهما - مكتنبا سياسيا يتركب من خمسة رجال - بدأت ، شيئا فشيئا ، ووسط مصاعب لا حصر لها ، تصبح واقعا . في ١٥ سبتمبر - ايلول - اجريت الانتخابات العامة على كامل التراب الجزائري . وفي ٢٧ سبتمبر شكلت حكومي . وفي ٣ اكتوبر - تشرين الاول - سافرت لمنظمة الامم المتحدة .

كانت بالنسبة لنا لحظة مؤثرة جداً عندما رفع العلم الجزائري وسط اعلام دول منظمة الامم المتحدة ، وانطلق يخفق معها في عنان السماء . وقد تلطف سيكوتوري فتجشم السفر الطويل من افريقيا الى امريكا ليكون حاضرا معنا في الاحتفال برفع العلم الجزائري ، وتأثرت جداً بحضوره ، الى جني .

وكان يُنظر ان القي من منبر الامم المتحدة خطابا صاعقا . فكان خطابي حازم المضمون ومعتدل الصياغة . ولا يتضمن اي هجوم على فرنسا التي كنا منذ الآن نريد ان نعيش معها في تفاهم ، كما تحملنا على ذلك طبيعة الاشياء نفسها .

كان لا بد من اقامة استقبال على شرف قبولنا في الأمم المتحدة ، وبهذه المناسبة ، اذكر ان بعض اصدقائنا نصحوني باحضار ماء الحياة Gin والويسكي وضروب أخرى من الخمر لدعوتنا ... وبرروا لي ذلك بأن « هذا سنة جارية هنا . حتى البلدان العربية تسير عليها » . فقلت لهم : « حتى ولو كان ذلك كذلك فانا لن افعله . ان الجزائر بلد مسلم . وهي تستقبل الناس بعبادتها هي ، لا بعبادات الآخرين » . وردوا عليّ بحسرة : « سيفشل الاستقبال ،

لان الامريكيين لن يحضروا^(١) . قلت : « اذا كانوا اصدقاءنا حقاً فيحضرون » .
وفي الواقع جاءوا ، بل جاءوا افواجا . وطوال ساعتين ظلوا يشربون
بشجاعة عصير البرتقال .

وخلال هذا الوقت كانت الصحافة الامركية تشن الحرب ضدي . وكان
لهيجانها سببان : موقفي من قضية فلسطين وموقفي ازاء كوبا .

إن كون اسرائيل رأس جسر للامبريالية الغربية في الشرق الادنى - هذا
أمر لا أشك فيه . وذلك ما قلته ولا أزال . وهذا سبب كاف ليتهمني
فوراً لفيف من الصحافيين ، تليحاً ، باني عدو للسامية^(٢) ، وبان يضمروا
لي حقداً ازرق كانوا لا يريدون كشف مصدره الحقيقي . اني ادفع تهمة
عداء السامية باستفزاز : انها مجرد وقية Calomnie . لم اكن ،
ولست ، ولن اكون عنصرياً . إن العنصرية موجودة عند الذين يتظاهرون
بالاعتقاد باني عدو للجنس السامي ، لاني أكتشف الدور الاجرامي الذي
تلعبه اسرائيل في قلب العالم العربي .

(١) تستخدم الدعاية الاسرائيلية والسائرون في فلكتها عداوة السامية L'antisémitisme
اولاً بمعنى عداوة الجنس اليهودي ، بينما هي تعني عداوة كل الشلالات التي اصطلاح تاريخياً على
تلقبها بالسامية نسبة الى سام بن نوح . والعرب كما هو معروف سلالة سامية ؛ وتستعملها ثانياً
سلاحاً للحرب النفسية وكسب الرأي العام العالمي الذي ينفر بعمق من العنصرية وبالاخص عدا
السامية ، الذي كان منذ قرون - وبشكل او بآخر - لا يزال سائداً في أوروبا التي كانت تعتبر
اليهود تجسيدا للشر على الارض . ولعل آخر تجليات هذه الظاهرة العنصرية الاوروبية المنسبت
المجازر الرهيبة التي نظمتها المانيا النازية لليهود وقتلت منهم مليون طفل . وما زلت اذكر انه
عندما ذكر صحفي اوروبي الرئيس بن بله بمذابح اليهود في المانيا رد عليه بن بله : « نحن العرب
مقدين هذه المذابح . ولكن الامة العربية غير مستعدة لدفع حسابات هتلر » . وان تقتيل ملايين
اليهود من النازيين ، الذين كان بينهم عملاء يهود ، لا يكفّر عنه بذبح الاطفال العرب في دير
باسين ، وطرد شعب كامل من وطنه .

الترجم

كان في فرنسا اثناء حرب الجزائر عدد من الصحفيين التقدميين الذين كانوا يدورون حول بلاط المعجزات : الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية . وفي لحظة الاستقلال تبنّوا بشكل اعمى قضيتها ضدي . وبما ان هؤلاء الصحفيين كانوا غالباً من بني اسرائيل ، فان تحاملهم عليّ كان يتغذى في دخيلة انفسهم من مناصرتهم للصهيونية التي لم يكونوا يبوحون بها . قلت هذا لبعض منهم عندما زاروني بالجزائر : بمهاجمتكم لي واستيائكم مني ، انتم التقدميين والمعادين للعنصرية ، ضد اي شيء تتخذون هذا الموقف ؟ ضد حكومة معادية للعنصرية تحاول ان تبني الاشتراكية . اننا نريد حقاً وصدقاً الثورة . اما الحكومة المؤقتة فانها لا تريدها . ان يكون المرء في نظر الحكومة المؤقتة « ديموقراطياً » و « اشتراكياً » و « تقدماً » فذلك لا يمشی أبعد من شرب كأس خمر برفقة الاصدقاء الاوروبيين بتجنّيك علينا انما تتجنّون على القوة التقدمية الوحيدة التي تجاهد لبناء هذه البلاد . وانكم ايضاً تضرون بقضية اليهود في العالم ، لأنكم تخططونها بقضية - مريبة ومحل جدال - هي قضية الصهيونية .

« وأخيراً فلا ينبغي ان يقال لي بأن دور اسرائيل تقدمي في افريقيا... لأنه بالعكس من ذلك تماماً : ذلك انه يوجد بين اسرائيل والامبريالية الغربية نوع من التفاهم الضمني لكي تستولي اسرائيل او تحاول ان تستولي على المواقع التي أكره الغربيون على تركها في افريقيا . ولهذا نرى في الساعة الراهنة ان ٧٥ بالمئة من التجارة الاسرائيلية يقع مع افريقيا الجنوبية ... وهذا ما يترككم أقل أحلاماً عندما تفكرون بالسياسة العنصرية البشعة لهذه الدولة ... »

ولنعد الآن للولايات المتحدة الاميركية وهيجان صحافتها ضدي . قبل ان اسافر

الأمم المتحدة تلقت دعوة من الرئيس كيندي . وقبله دعائي فيديل . وقد
تناقشنا في مجلس الوزراء حول المشاكل التي كانت تطرحها هذه الدعوة
المزدوجة . وبالتأمل ظهر لنا انه من المستحيل - سياسياً وعاطفياً - ان
نزور واشنطن دون ان نزور كوبا . وحتى قبل ان نساfer من الجزائر قلنا
ذلك للأمير كان كان رد فعلهم عنيفاً . لم يقولوا ذلك ولكنه كان من السهل
ان نقرأ بين سطور جوابهم ما كانوا يريدون قوله : « لما كنتم ذاهبين الى كوبا
فلا جدوى إذن من القدوم لرؤيتنا » . وبالطبع كان رد الفعل هذا ملفوفاً
في لياقة اللغة الدبلوماسية . ولكن عندما علمت الصحافة الاميركية انني بعد
أن استقبلني كيندي اتأهب لزيارة كاسترو ، عندئذ أخذتها نوبة هستيرية . وفي
جميع قاعات التحرير بالولايات المتحدة الاميركية أصبحت فوراً شيطانا .

وظل الجو حتى في الدوائر الرسمية متوتراً. عندما أقام كيندي حفلة على
شرف الجزائر أوشكت الامور ان تسوء كثيراً . لأنني في الواقع علمت ان
ممثل فيتنام الجنوبية الذي كان عميد السلك الدبلوماسي في أمريكا سيقدم لي أعضاء
السلك الدبلوماسي . وفوراً عارضت بشدة ذلك وقلت للأمير كين : « اني
لا اعترف بحكومة فيتنام الجنوبية ولا أريد أن أصافح هذا السيد كما لا أريد
منه ان يقدم لي أيأ كان » . كانت القضية حامية . ولكن الامير كان
استسلموا . وأثناء الحفلة عندما تقدم مني ممثل فيتنام الجنوبية أدت رأسي
قصداً . وبدون شك أشعره مستخدموه فمرّ دون ان يتوقف . لا فقط لم
يتمكن من أن يقدم لي زملاءه رجال السلك الدبلوماسي بل لم يجرؤ حتى
ان يقدم لي نفسه .

كنت أعطف على كيندي حتى قبل 'لقبائه' ، لاني لم أكن اجهل انه في
سنة ١٩٥٧ القى خطاباً نادى فيه باستقلال الجزائر . وعندما تغديت معه لم

يخيفني استقباله الاول . لقد ترك لدي الانطباع بأنه رجل نزيه وشجاع ولكنه بدا لي خاضعاً لضغوط لا حصر لها ، واسيراً بشكل خارق للعادة ، للنظام السائد في بلده . عندما قلت له بأن الديبلوماسية الامريكية تساند نظم الحكم المتعنتة في العالم وتهاجم زعماء مخلصين مثل كاسترو وناصر ، يجب ان اقول بأن جوابه لم يكن يبدو لي 'مقنعاً' .

فيما يخص كوبا قال لي بأنه يستطيع ان يقبل بمزيد من الصبر ان يوجد في الجزيرة العظمى شيوعية على النمط اليوغسلافي او على النمط البولوني ، ولكنه لا يقبل شيوعية « تَوسُّعِيَّة » تشيع الثورة في كل امريكا الجنوبية . وقال لي ايضاً انه لا يقبل بوجود قاعدة للصواريخ في الجزيرة ؛ ولفت نظره بهذا الصدد الى أن قاعدة عسكرية للولايات الامريكية المتحدة توجد على ارض كوبا ...

كانت مواجهتنا عنيفة . وكانت من كلينا جد صريحة . وفي لحظة ما أتذكر اني قلت له باحتداد :

«لماذا تضطهدون كاسترو ؟ ولماذا هذا الحصار اللاإنساني الذي تضربونه على كوبا ؟

انني انذركم اذا ما تصرفتم معنا في المستقبل مثلما تتصرفون معه فستحصلون على كوبا ثانية في افريقيا ... »

واخيراً فارقت كيندي دون اوهام بخصوص سياسة وزارة الخارجية الامريكية وبخصوص المساعدة المالية التي وعدنا بها والتي لم تلبث في الواقع ان سقطت في مهاوي النسيان ، ولكن مع عواطف تقدير وعطف شخصي عليه . لانه كان العنصر المعتدل تجاه هيجان قوى العدوان والحرب في بلده . وشعرت بأن موته كان خسارة كبيرة للولايات المتحدة وللعالم .

وأذكر اني كنت جالساً في غرفتي بفيلا جولي عندما 'حملت' اليّ برقية قفيدة ان اعتداء قد 'دبّر' ضده في دالاس . ولم اكذ افرغ من قراءتها حتى وصلتني برقية ثانية تعلن موته . فقممت متأثراً وبدون ان يكون لي الوقت لاستدعاء مجلس الوزراء تَلَفَظْتُ الى الاذاعة وامليت تصريحاً ندّدت فيه بالمؤامرة العنصرية والبوليسية التي كان كيندي ضحيتها ، والتي سيحاولون بدون شك نسبتها الى فيديل كاسترو ! ..

وبعد ايام اطلقت اسم الرئيس كيندي على ساحة الابيار الكبيرة .
عندما آن الآوان لمغادرة الولايات المتحدة، قبل الامريكيون بصعوبة باللغة ان تأتي طائرة كوبية لنقلي. لقد كان موقفهم عدائياً لدرجة اني كنت أخشى في لحظة ما ، ان تقدم وكالة المخابرات الامركية ، بدران استشارة الرئيس ، على تخريب الطائرة على أرض المطار، أو ترسل بجدامها من الطيارين المعادين لكاسترو للاعتداء عليها في الجو . وما ان وضعت قدمي في الطائرة وارتمتي الكوبيون على رقبي عناقاً حتى نسيت بسرعة هذه المخاوف .

ان ما كنت افتقد في الولايات المتحدة الامركية ، اكثر من أي شيء آخر ، هو حرارة العلاقات الانسانية. ومنذ اللحظات الاولى كان الانطباع الذي اعطتني اياه الممارات الشاهقة والمدن العمودية هو ان امريكا جدار . نعم امريكا جدار - جدار ينتصب شامخاً بين الناس - ان الذي لا تعرفه هذه البلاد هو التّواصل - La communication بين الانسان والانسان ولهذا كانت مدنها الكبرى تَعبُجُ بالسكان ولكنها في ذات الوقت قَفرٌ .

لم يسبق لي ان مَاشيتُ من الناس بقدر ما مَاشيت في الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن لم يسبق لي قط أن شعرت بأنني وحيد

مثلما شعرت بذلك فيها . ان في قلب هذه الجموع البشرية المتدفقة فراغاً لا إنسانياً : غياب التأثير - L'affetivité - ان التأثير يشكل في الوجدان الجزائري العنصر الأساسي للحياة ، والمادة التي بدونها نفقد القدرة على التنفس .

وبسعادة لا تقدر غرقنا ، ابتداء من الطائرة ، في الصداقة الكوبية ما كدنا نأخذ مقاعدنا في الطائرة حتى قدموا الينا قهوة - Cafecito - ممتازة ، جد قوية ، جد حلوة ، وتفوح منها العطور .. وراحونا من هذا المشربب التافه الذي يسمى قهوة في الولايات المتحدة الامريكية . وفوراً بدأنا نتجاذب اطراف الحديث ، ولكن لا استطيع ان اقول بأية لغة ، هم لا يعرفون العربية اطلاقاً وانا لا اعرف من الاسبانية الا قليلاً .. ولكن الصداقة كانت معوضاً عن كل شيء .

الجزائريون يعلنون دائماً ، بـلـه الحق ، انهم عرب . وفي أي قطر من أقطار الأمة العربية لا يشعرون ابداً انهم غرباء . سواء كنا في القاهرة أو في دمشق أو في بغداد ، رغم الفوارق العظيمة ، فاننا نجد دائماً بعض العناصر - مظهر الشارع ، كلمة ، اشارة ، او عادة - تذكركنا فجأة بأننا في الجزائر . ورغم انه ليس لنا مع كوبا لا رابطة الجنس المشترك ، ولا العادات ولا اللغة ولا حتى الطَّبْع Le caractère - لأن الكوبيين اكثر تدفقاً بالحيوية منا - فان التواصل بين الجزائريين والكوبيين يتجلى بعمق وعلى الفور .

كان فيديل ينتظرنا في مطار لاهافانا مع وزرائه وكل الحكومة التي لم يتخلف منها واحد عن ارض المطار ، كانوا جميعاً متأثرين ، أخوين ، ومتلهفين لرؤيتنا . وقد أعددت بعناية خطابي بالاسبانية ، ولكن بالتأثر

الذي استولى عليّ ، ارتكبت اخطاء كثيرة وكان نطقي بالغ السوء . ولكن ذلك لم يكن مهم مستمعيّ في قليل او كثير ، وكانوا يصفقون لي مع كل جملة . وتحت شمس الخريف الاستوائي كانت الجماهير الكوبية المتحمسة ترقص حوالَيْنَا . انها لم تكن الا وَجْداً وسُورة وحيوية .

ما ان انتهت خطابي حتى تقدم نحوي فيديل وعانقني عناقاً عميقاً وطويلاً *Fuerte Abrazo* . وقد دَوَّيْتُ تصفيق بدون انقطاع وعندئذ رأيت اطفالاً جزائريين من ابنساء الشهداء ^(١) يتقدمون نَحْوِي ، كانوا ضيوفاً على فيديل منذ عامين . لقد تأثرت حتى العظم برؤيتهم هناك . وقيل لي بانهم يعملون كثيراً ، وبانهم يتكلمون الاسبانية بدقة ، وبانهم كانوا الفائزين الختاميين ، في صفهم ، ببطولة كرة القدم الجامعية في كوبا ... ولكنهم خسروا المنافسة النهائية *La Finale* بحرمانهم ، عقاباً ، من خوض المنافسة : لقد تصرفوا تصرفاً جزائرياً ! فلكموا خصومهم ...

لم نقيم في كوبا إلا ستاً وثلاثين ساعة . ولكن اي عيد *Fiesta* كان خلال هذه الست والثلاثين ساعة ! لست ادري من الذي كان قد اعد برنامج الزيارة ، ولكن فيديل لم يقرأ لهذا البرنامج أي حساب ... لقد دُسّنا على كل المراسيم وتحدثنا ، تحدثنا ... اثنان من اكثر ثوريي العالم شباباً يلتقيان ويواجهان مشاكلهما ويشيّدان معاً المستقبل .

غداً وصولنا أَرانا فيديل شاطئ *Yaradero* ، ومزرعة من مزارع الشعب وعقيقاً ^(٢) شجره بنفسه . لقد أثار إعجابي ما لمستته عند الزعيم

(١) كانوا ٣٠ طفلاً من جهة وهران استقبلهم فيديل كاسترو بنفسه ١٩٦٠ . وسافروا الى

روبير ميل

كوبا عن طريق المغرب يرافقتهم معلمهم بن اسماعيل .

- المترجم -

(٢) العقيق هو نوع من الادرية الصغيرة .

الكوبي من ان اهتماماته الجديدة لا تعني استبعاد حسّ الشكّنة !

وتشريفاً لنا أرفق سيارتنا بحرس الدراجات النارية . كانوا يرتدون بدلات قرمزية على شاكلة الفرسان ، وكان عليهم ان يتقدمونا ، ولكن في الواقع كنا نقف دائماً في كل ملتقى طرق لانتظارهم ، وفي كل مرة كانوا يخطئون الطريق . وأخيراً نزل فيديل من السيارة منفعلاً . كنت انتظر منه أن يُعَنِّفهم ، وفعلنا عنقهم على نحو لم يكن اطلاقاً في الحسبان . إذ قال لهم : « قولوا أيها الرفاق، هل سندمب لرؤية هذه المزرعة ام لا نذهب؟ هل أعرف هذه المزرعة ام لا ؟ بل وهل توجد أساساً هذه المزرعة ؟ لقد وصلتم الى جملي اعتقد بأننا ربما لسنا في كوبا ؟ .. » وهنا انطلق الناس كلهم يضحكون بما فيهم حرس الدراجات وعاد فيديل للسيارة .

كان فيديل قلقاً على قوتنا الدفاعية . ولقد قل لي :

- أعرف ان عندكم جيشاً ممتازاً . ولكن هل عندكم دبابات ؟

- حتى الآن ، لا ...

وظل يتذكر هذه الإجابة لعدة شهور فيما بعد ، عندما قامت حرب الحدود بيننا وبين المغرب .

وطلبنا منه ان يرسل لنا باخرة من السكر ، فأرسلها لنا، وعندما شرع عمالنا بالميناء يفرغون شحنتها وجدوا الدبابات مخبوءة بين اكياس السكر ..

تحدثت معه في مشاكلنا الزراعية . فقلت له بأننا نحن المسلمين لا نشرب الخمر، وربما وجب علينا ان نستبدل الكروم بزراعة اخرى . فقال لي : كلا، كلا ، لا تفعلوا ذلك . انه الخطأ الذي ارتكبناه نحن ايضاً في البداية ، مع قصب السكر . الكروم هي افضل ما زرع المستعمرون في بلادكم . فاحتفظوا

بها . بل واغرسوا منها أخرى . خمركم به درجة عالية من الكحول، ويمد دائماً أسواقاً . ،

لم أعرف اقصر من هذه الست والثلاثين ساعة . لقد تركنا فيديل بتأثر خارق للعادة . ودعواته لزيارتنا في الجزائر . ولكن هل سيأتي ؟ ان الحرب معلقة في شفرة سيف مسلول بالليل والنهار فوق كوبا .

عندما حلقت طائرتي للنزول فوق مطار الجزائر ، انطلق قلبي بالتحققان لمنظر المدينة العظيمة الممتدة كهلال حول خليجها . هذا البلد المشرق الرائع بعد سنواته السبع من الحرب ، ومليون من قتلاه ، وجروحه النازفة ، ونواقصه ، وفقر جماهيره ، يجب ان نعيد بناء، من بابه الى محرابه على قواعد جديدة ... فهل سيمكنني القدر من الوقت لذلك ؟

الفصل السابع

المشاكل الأولى

كانت الوضعية ، بعد سبعة اعوام من الحرب ، شنيعة : فالبلاد مُستنزفة
الدم ، مهْرُوسة المفاصل : فنظمة الجيش السري هُدمت مدارسنا بالقنابل ،
وحرقت مكتبة الجامعة الجزائرية ، وأبادت اطنانا من الملفات الادارية .
وقد ترك آلاف من المدرسين مراكزم . وما زال الجيش الفرنسي بفضل
اتفاقيات افيان يحتل البلاد ، وفي اشياء كثيرة ما زلنا خاضعين للحكومة
الفرنسية . ومن جهة اخرى فان الهجرة الجماعية للتسعة اعشار السكان
الفرنسيين بالجزائر ، صيف ١٩٦٢ ، قد جَرَّ انهيار الابنية الاقتصادية للبلاد . وعلى
عشرة ملايين ^(١) من الجزائريين يوجد مليونان عاطلان عن الشغل ، منهم اكثر
من ربع مليون في مدينة الجزائر وحدها . واصبحت العطالة في المدن اكثر
هَوَلاً بتدفق القرويين الجياع . لقد لاحظت من زمان هذه الظاهرة في مدينة
مغنية بعد الحرب العالمية الثانية . ولكنها اليوم تفوق في الاتساع وفي
الديْمُومة 'لجُوء الفلاحين الى المدن سنة ١٩٤٥ .

(١) حسب رن احصاء (سبتمبر ١٩٦٥) لسكان الجزائر بعد الاستقلال تبين انهم ١٢
مليوناً الا قليلاً . - المترجم -

عمّ" كان الفلاح يبحث في مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة خلال صيف ١٩٦٢ ؟ عن الإغاثة الغذائية ، وعن المدرسة لابنائهم ، وعن المساعدة الطبية له ولعائلته ، وايضاً عن مسكن رخيص ، لانه لم يكن يحمل الاقبال الذي لا يُرد من جماهير المدن البائسة على المنازل التي هجرها الفرنسيون . هذا الجيش من عاطلي المدن طرح علينا مشكلة شبه عصية على الحل ، لاننا لا نملك ولا ننتظر ان نملك قبل زمن طويل صناعة تسمح لنا بحلها . كان علينا اذن ان نقتنمهم بالعودة الى القرى وكان لا بد لكي نعطي سواعدهم شغلاً ونؤمن للبلاد مصدراً للتموين ان نحسي قبل كل شيء القطاع الزراعي كله . ولهذا كانت « حملة الحرث » ^(١) اول معركة خضناها .

وانطلقت الحملة في ١٥ سبتمبر ، وبعد شهر ونصف كللت بالفشل .. كانت

(١) بعد سبع سنوات من الحرب والتهجير واحراق المحاصيل وتدمير الماشي تحولت اغلبية الاراضي الجزائرية الى بور ، وبرغم يقظة العمال الزراعيين ومقاومتهم المثالية استطاع بعض المستعمرين الفرنسيين ان يدمروا ادوات الحرثة قبل ترك مزارعهم ؛ يضاف الى كل هذه المصاعب الموضوعية الموروثة عن حرب «الارض المحترقة» التدمير البعيد المدى الذي احدثته منظمة الجيش السري بعد ايقاف اطلاق النار وازمة الصيف الشهيرة (١٩٦٢) التي اخرت انتصاب اول سلطة وطنية ثورية بعد الاستقلال الى اواخر سبتمبر ١٩٦٢ . كانت الحكومة الوطنية ترى بوضوح ان البلاد مهددة بشتاء جائع وصعب ، اذ ان الفلاحين الجزائريين كانوا ، على حد تعبير ، عمار اوزقان ، وزير الاصلاح الزراعي عهدئذ ، يصارعون البغال على أكل الشعير فيما العمل للتخفيف من حدة هذا الوضع الاليم وتأمين خبز شتاء السنة المقبلة ؟ كان بعض المستشارين الاجانب لا يرون سبيلاً للخروج من المأزق الا باستعطاف المستعمرين الاوربيين للعودة الى احتلال مزارعهم من جديد . ورفض بن بله الاستماع لهذه « النصائح » واهتدى الى حل العمل الشعبي الجماعي على مستوى الزراعة ايضاً . فأعلنت حملة الحرث وشكلت كتائب للحرث كانت تعمل على الارض ليلاً ونهاراً وما جاء آخر الموسم الا وملايين الهكتارات قد زرعت . وفي موسم الحصاد التالي استعمل نفس التيكنيك في حملة الحصاد .

- المترجم -

الوضعية رهيبة . لقد ارتكبنا خطأ خطيراً . وعدتنا البلدان الاشتراكية بالجرارات ، واعلنت الاذاعة والصحف وصولها . وفي اذهان الفلاحين كانت هذا يعني اننا سنذهب اليهم ونحرث لهم ارضهم . وبالنسبة فان احداً لم يعد يفعل شيئاً ، وعلى صعيد الادارة المحلية لم تكن هناك أقل مبادرة . كان كل الناس ينتظرون الجرارات .

وكان ان قررت اللجوء الى وسائل جذرية . فتخطيت الولاة ونواب الولاة ، وشيوخ المدن ، واستدعيت موظفي الجمعيات الفلاحية الاحتياطية S. A. P. ؛ وشرحت لهم بان عليهم ان يشعروا عن سواعد الجد وان يشعروا في الحرثة بالوسائل المتوفرة . وقبيل المبدأ ولكن آلافاً من المشاكل الثانوية طرحت نفسها . وظللت من يوم ليوم ، وخلال شهرين ، أحلها بنفسي . عندما أشعرُ بعطب «Panne» في مكان ما ، فاني اسرع الى عين المكان ، واقوم بالتحقيق ، عند اللزوم بدون المرور بوزير الداخلية . كنت اقتصد من الموظف العاجز ، وأسخر فوراً حبوب البذار والمحارث والجرارات.. كانت هذه الوسائل تنافي التقاليد البيروقراطية .. وانطلق الكثيرون يشجبونها ويتصايحون انها «الديكتاتورية» . ولكن أي الحلين كان افضل : احترام الشكليات وخسران حملة الحرث ، ام تجاوز الشكليات وبيع المعركة ؟

لأننا في نهاية المطاف ربخناها . وفي الإبان حرثت ثم بذرت كل الارض . وتهيأت الامطار بسخاء . وكان موسم ١٩٦٣ كريماً ورائعاً .

في هذا الحريف اتخذت حكومتي قراراً أسال كثيراً من الحبر : قرار منع الحزب الشيوعي الجزائري .

لقد قدّم هذا الاجراء للجماهير على نحو بالغ السوء . ونظراً الى انه كان خالياً من التوضيحات التي كان لا بد منها فقد صُنِّفنا في المعسكر الماعدي للشيوعية ^(١) . والحق ان هذا القرار لا ينكشف مدلوله الحقيقي الا بوضعه في إطاره التاريخي :

لقد ناضلنا طويلاً وضحينا كثيراً قبل وبعد ١ نوفمبر للابقاء على وحدة جبهة التحرير الوطني - لاننا كنا نشعر بان ذلك هو الشرط الجوهرى لقوتها ونجاحها - وعلى ان اقول اننا عندما وصلنا الى السلطة لم يدرب بخاطرنا ان نترك الاحزاب السياسية تتكاثر وتنتصب في الجزائر . ولذلك غداة الاستقلال استبعدنا هذا الاختيار في منهاج طرابلس المرحلي . لانه بدا لنا كـ « بضاعة فائضة » لا يستطيع بلد متخلف ان يسمح بها لنفسه .

إن البلدان المتخلفة مُستهدفة للاخطار بشكل فائق . وبالنسبة لجل هذه البلدان لا توجد الامادة اولية زراعية هي التي تشكل مصدر العيش الوحيد: السكر لكوبا ، والقهوة لبعض البلدان الافريقية ، والكروم للجزائر والقنب للبكستان والقطن لمصر . واسعار هذه المواد الأولية تحدّد لا في عواصم البلدان التي تنتجها بل في العواصم الغربية التي تشتريها . وهكذا فالبلدان المتخلفة تابعة دائماً ، ومستغلة دائماً ، ومدينة دائماً ، والبون بين مستوى حياتها ومستوى حياة البلدان الصناعية لا يتقارب مع الزمن ، بل بالعكس يتفاقم . لا شيء افضل من ان ترتضي هذه الامم الكبيرة لنفسها وجود اثنين او ثلاثة او عدد من الاحزاب السياسية ، ولا شيء اكثر رياء من هذه المظاهر

(١) لم يفتأ الرئيس بن بلة منذ اختياره على رأس السلطة الثورية يردد بدون ملل : « أن عداء الشيوعية سياسة خطيرة » . لانها لا تخدم الا اهداف المستعمرين والمعسكر الرجعي .
- المترجم -

الجميلة ! بالأخص ان « اشتراكيي » ومحافظي البلدان الغربية عندما يتسلمون السلطة يخدمون جميعاً بِذِلَّةٍ متساوية مصالح الامبريالية .. اما نحن ، فجماهيرنا البائسة والامية التي لاتتجاوز دخلها في أي مكان عشرين الف فرنك قديمة في العام ^(١) ، فلسنا اقوياء بالقدر الكافي حتى نسمح لانفسنا بهذه الألاعيب الأريسية . ان تعدد الاحزاب عندنا لا يمكن ان يعود الا للبلبة وتشتيب الجهود ، والفوضى ، او الى ما هو اسوأ من ذلك : التدخل المتستر من الاجنبي في سباق الاقتراع . لكي نعمل ، ونعمل بسرعة ، ولكي نتدارك تخلفنا ، ولكي نصلح جذرياً الابنية الاجتماعية والاقتصادية ، فنحن نحتاج الى حزب وحيد يجمع ويدرب كل قوى البلاد .

لقد أسهم الحزب الشيوعي الجزائري في حرب التحرير الوطني . ولكن كيف كانت هذه المشاركة ؟ لا بوصفه حزباً بل بتركة مناضليه ينخرطون في جبهة التحرير الوطني . فهل نسمح لهؤلاء المناضلين بان يتخلوا عنا بعد عودة السلام ويعيدوا تأسيس الحزب الشيوعي الجزائري ؟ وفي هذه الحالة لماذا لا نأذن للسيد فرحات عباس باحياء الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري ؟ ان الانسان ليسمى ويرى ويحدث بالاطوار التي سنتعرض لها حينئذ .

كانت ردود الفعل العالمية متنوعة ازاء هذا الاجراء : ابتهج كثيرون قبل الاوان بقرارنا ، واستاء منه آخرون بغير سبب . ولفترة معينة حصل شيء من البرود في علاقاتنا بالبلدان الاشتراكية باستثناء فيديل كاسترو الذي كتبتُ موضعاً له فوراً أبعاد القرار . وفي الشهر التالي واصلت عملية التوضيح ؛ فشرحت بعمق واتساع للشيوعيين الايطاليين ، الذين وجدتهم خلال مقابلي

(١) حوالي عشرين جنيهاً مصرياً .

- المترجم -

شديدي الانفتاح والادراك ، وجهة نظري . وبعد ذلك مباشرة اكدت عزم حكومتي الراسخ على عدم الوقوع في فخ عداء الشيوعية المذّهب . وبعد هذا بقليل صرحت على رؤوس الاشهاد بأنه لو لم يكن الاتحاد السوفياتي موجوداً فإنه كان لا بد لنا من خلقه ، على الاقل لوضع رادع امام التوسع المفترس من طرف الامبريالية ..

يجب ان اضيف بانني على الصعيد الانساني أشعر باحترام عميق للمناضلين الشيوعيين . انهم يثيرون اعجابي لانهم تجردوا من كل ارتباط بعالم المصالح الشخصية الصغير والحقير . ولانه لا المال ، ولا النجاح ، ولا المناصب ، لا شيء من كل هذا يحسب له حساب عندهم . ولانهم في كل لحظة مستعدون للتضحية بكل شيء بما في ذلك حريتهم وحياتهم نفسها في سبيل مثلهم السياسي الاعلى . وبهذا الخصوص فاني اشعر بانني جد قريب منهم .

واعطيهم الحق على صعيد التحليل الاقتصادي . ولكن افترق معهم فقط على الصعيد الفلسفي . لانهم غير مؤمنين وانا مؤمن بالله . انني اعلم جيداً اني لا استطيع ان ابرهن عن معتقداتي الدينية وبأنها باقية فيّ على الصعيد الذي لا سبيل للتأكد منه . ولكنها على اية حال اعتقادات موجودة فيّ ، وبدون تعصب وبدون انفلاق ، اتعلق بها كثيراً . ولا ارى لماذا لا يستطيع المؤمن - مسلماً كان او مسيحياً - ان يتفق على صعيد المنجزات الارضية مع المناضل الشيوعي . واقصد المؤمن الحقيقي ، لا واحداً من هؤلاء الناس الماهرين الذين يستخدمون « ايمانهم » للدفاع عن مفاهيم اجتماعية رجعية وتكريسها ..

من بين الشؤون التي اهتمنا بها اكثر من سواها ولا نزال.أضع التعليم في

المقام الاول . لقد طرحت علينا السنة المدرسية في اكتوبر ١٩٦٢ مشاكل رهيبة . ولكنها اخيراً حُلّت ، على نطاق واسع ، بفضل - وهذا ما يجب ان يقال - معلمي واساتذة التعاون الثقافي الذين استجابوا في معظمهم لنداء الحكومة الفرنسية . ولكن من جهتنا كنا واعين باهمية القضية - التي هي الاعداد السريع لكوادر كانت بلادنا في اشد الحاجة اليها - وكنا مصممين على بذل مجهود مرموق فيها . ولعل الرأي العام هنا او فيما وراء البحر الابيض المتوسط لا يعلم بالقدر الكافي أن الجزائر هي احد البلدان النادرة التي كرسَت ربع ميزانيتها للتعليم .

لكي نحبي على رؤوس الاشهاد مشاهير الاساتذة الفرنسيين الذين يدرسون عندنا ، ولكي نشير الى الامة القصوى التي ننيطها بالتعليم ، قررنا ان نقيم احتفالاً مشهوداً للسنة الجامعية بالجامعة الجزائرية . وقررت ان احضره بنفسي ، وفيه القيت خطاباً عرضت فيه بعض الافكار التي اعتر بها . وفي الواقع كانت فرصة سانحة لنؤكد، في نفس الوقت، احترامنا للثقافة الفرنسية وايضاً ضرورة البحث في اعماقنا للعنور من جديد على البعد الاخلاقي والثقافي الذي ضاع منا بضائع لغة اجدادنا الرائعة ^(١) .

(١) بدون مبالغة اعتبر هذا الخطاب - نوفمبر ١٩٦٢ - « غرة » نوفمبر اخرى لثورة تحرير اللسان الجزائري من الاستعمار اللغوي ، وتاريخياً كان الخطاب تدشيناً واثماً مثيراً لضرورة التعريب الملحة في الجزائر ؛ فبالاضافة للموضوعات التي يعرضها المؤلف في هذه الفقرات نادى بن بلته من اعل منبر الخطابة وبمشهد من رجال الفكر الثقافي الجزائري والفرنسي وبحضر عشرات من مراسلي الوكالات والصحف العالمية : « اقولها صريحة : لا اشتراكية في الجزائر بدون تعريب ! » وياكم اسالت هذه الجملة من مداد ! وياكم فجبرت في الصدور من حقد كمين ضد العربية ومتكلمها فانطلقت صحف الاستعمار الجديد في فرنسا تتنادى بالفضيحة ! وتصوب على بن بلته كل سبّابات اتهامها : « ديماغوجية » « عودة بالجزائر الى القرون الوسطى » « حرب على اللغة الفرنسية في -

من الواضح ان المستعمر عندما يتعلم لغة اجنبية يشبني قليلا أو كثيراً
أبنيتها الذهنية . انها عملية إثناء ، اذا كان يمتلك ويستعمل لغته القومية ؛
ولكن اذا كانت هذه لم تعد السند الاعتيادي لفكره ، واذا كان هذا الفكر
مضطرباً ، لكي يخرج الى وضع النهار ، الى المرور بلغة الغزاة ، فانه من
الطبيعي ان تصبح عملية إستلاب - Aliénation - لجوهر الانسان المستعمر .
ان هذا الاستلاب عند بعض المثقفين الجزائريين اصبح مقبولا بل ومرغوباً
فيه . انهم برياء Snobisme ، او بانتهازية ، او بانعدام التبصر السياسي ، او
بالافتتان بالهبة العالمية للغة الفرنسية ، يشعرون في أعماق نفوسهم ، وان لم
يعترفوا بذلك ، بانهم فرنسيون اكثر منهم جزائريين . اما اللغة العربية فلا
يشعرون تلقاءها الا بمشاعر الهجر والبعاد .

اعتقد ان موقفاً من هذا النوع بعيد الضرر ، لانه يتضمن عند المثقف

→ جزائر بن بلته « د التعصب العربي ينتصب » . اما الصحف الفرنسية التي تحركها خيوط من
تل ابيب .. وتستر تحت قشرة « يسارية » سريرة الزوال فقد ضربت على طبل جديد : اتهمت
بن بلته بـ « خيانة » الثورة الاشتراكية من اجل الاوهام القومية ..

وفي الجزائر ذاتها اثار هذا الخطاب جدالاً ، حول ضرورة التعريب ، وامكانياته ، ومتاعبه ،
استمر سنتين بدون انقطاع . ومن مأساخر التاريخ انه وجد في الجزائر يومئذ بين المثقفين
الجزائريين ممن يدافعون اليوم بإرداج منتفخة عن « العروبة والاسلام » ويضعون بن بلته في
قفص الاتهام ، من تساءل بسخرية عن « علاقة التعريب بالاشتراكية » .

وكا كان بن بلته هو الاشتراكي الحقيقي الاكثر حماساً وصدقاً بين كل اعضاء حكومته ،
والاكثر حداً واهتماماً بجماهير الشعب الفقيرة التي يحبها وتحبه ، فقد كان ايضاً النصير الذي لاتلن
له قناة في ترسيخ دعوة التعريب في كل مجال وكانت مواقفه منها هي الحاسمة . وعندما اعتبر أول
دستور جزائري العربية لغة البلاد الرسمية الوحيدة - وهذا الاختيار لم يكن لا سهلاً ولا بدون
معارك - وجد من كان يقول ان « ديكتاتورية بن بلته هي التي فرضت علينا العربية .. بدلاً
من الفرنسية او على الاقل معها . »

- المترجم -

الجزائري الذي يقبل به نهجاً للتفسخ القومي سيكون خطيراً بامتداده ،
بالتعليم الاجباري لكوادر المستقبل للدولة .

اما فيما يخص الجزائريين - وانا واحد منهم - الذين لا يقبلون بهذا
الاستلاب ، فانهم يحسون في اعماق نفوسهم بالحرج العميق الذي ينتابهم
عندما يعبرون عن الاشياء بالفرنسية ، بينما يشعرون بها بالعربية . وهكذا
فان فراقاً دائماً بين الرأس والقلب ، بين الفكر والأحاسيس ، يمزق اعماق
نفوسهم .

بالتأكيد سيكون جنوناً ان نعلن باسم قومية غير مهضومة ، الحرب على
اللغة الفرنسية ، التي هي جسر ضروري جداً يصل النخبة الجزائرية بعلوم
الغرب . بالعكس يجب ان نحافظ على البعد الفكري الذي وهبته لنا . لانه
بعد ملك أيدينا ، ولكن في الوقت نفسه ينبغي علينا ان نستعيد البعد
الفكري الذي ينقصنا : الاثراء الذي تحمله اللغة العربية للعرب الذين هم نحن .
بيد انه يجب ان لا نكتم بان هذه مهمة طويلة النفس وخمسة عشر او عشرون
عاماً قد تكون ضرورية للوفاء بها على اكمل الوجوه .

* * *

في فبراير - ١٩٦٣ - تمت عملية تجميع « ماسحي الأحذية الصغار » . اذا
كان هناك مشهد قد وجدته على الدوام يرمز بقوة الى اذلال « لانديجان »
من سكان البلدان المتخلفة ، فهو هذه الأفواج العجاف والمتلفعة بالاسمال من
الاطفال الجائئين عند أقدام رجال أصحاء يكلون اليهم تنظيف أحذيتهم
القدرة . بالتأكيد ، لست انا الوحيد الذي وجد في هذه الواقعة فضيحة .
اذ منذ تشكيل حكومتي كنت يومياً اتلقى رسائل من جزائريين - نساء

ورجالاً - يقولون فيها : « يا رئيسنا اتنا نتألم من البؤس واتنا جياع . ولكن
بؤسنا الاعظم هو ان نرى هؤلاء الاطفال في الشوارع يمسخون احذية الاجانب
واحياناً نعال الجزائريين . يا رئيسنا ان هذا لعار ، وانه لنيل من كرامتنا ،
لا ينبغي ان نسمح به » .

اعلم جيداً ما عسى ان يجيب به على هذه الرسائل 'منظّر Théoricien
الاشتراكية : الحل الوحيد الصحيح لمشكل صغار ماسحي الاحذية هو حل
اقتصادي . بالقضاء على البطالة يتوقف استغلال الاطفال تلقائياً، لانه بالقضاء
على السبب يزول المسبب .

هذه هي الاجابة التقليدية Orthodoxe . وانها لصائبة اقتصادياً ولكنها
إنسانياً ليست مقبولة ، لأن القضاء على السبب يقتضي اعواماً ، وطوال هذه
الاعوام ، يواصل « صغار ماسحي الاحذية » الفرق حتى الاذقان في
القذارة ، والأمراض ، والأمية والمهانة . وكلما تأملت هذه المسألة بدا
لي مستحيلاً التضحية ، في الحاضر ، بهذه الآلاف من الاطفال والانتكال على
المستقبل لحل مشكلتهم .

ولهذا اضطررت الى ان أفعل ما يُمكنه كل اقتصادي جيد : فبدلاً من
الهجوم على السبب قررت الهجوم على المسبب . بحثت مع بومعزة (١) في
الوسائل التي يمكن ان نجتدها لهذا المشروع . وتم الاتفاق على ان نجمعهم
بقاعة ابن خلدون وبعد ان نشرح لهم ما سنفعله بهم ، نوزعهم على مراكز

(١) وزير الاقتصاد في حكومة بن بلّة وقد انضم لبومدين بعد انقلاب ١٩ جوان - ثم
استقال اخيراً وأنضم لإحدى المعارضةات السرية .

مختلفة لتثقيفهم . وهذه العملية التي قمنا بها وسط حماس الشعب الجزائري
الصاحب كُتِلَت بنجاح عظيم .

لقد كان طبيعياً ان يكون بيننا اناس يجرؤون على التصريح بان هؤلاء
الأطفال فقدوا ، بسبب سنيّ البؤس الطويلة والفوضى والقذارة ، القدرة على
الدراسة . ولكن التشاؤم غالباً هو الحجاب الذي تختبئ وراءه الروح الرجعية .
وانا لم اقتنع بهذه الطريقة في التفكير .

وباقترح مني قام المدربون المنكوبون على « صفار ماسحي الاحذية »
بتجربة أولى ، فانتخبوا من بين اذكى الاطفال اربعة سبق لهم في الماضي ان
درسوا بعض الشيء ، ولكنهم اضطروا فيما بعد لترك الدراسة ، وخصّوم
بدروس سريعة وبعد ثلاثة شهور قدموم لاجتياز فحص لدخول الى ثانوية
Lycée ، وقبيل الاربعة فيها . وقد شجعتم هذه التجربة فانتخبوا في عنّابه
خمس من ماسحي الاحذية الصفار ، وبعد شهرين نجحوا في الارتفاع بهم الى
مستوى فحص الدخول للثانوية التكنيكية . وهكذا تلقت نبوءات المتشائمين
تقنيّداً من الواقع .

بعد شهور شاهدنا من جديد بعض ماسحي الاحذية بمحديقة بور سعيد (١)
بالعاصمة . هذه المرة كانوا كباراً من ذوي العاهات ، والعرج والحدب .
وتركناهم ، مؤقتاً ، يمسخون على النعال ، في انتظار ان نهم في المستقبل .
لانه لا سبيل في الجزائر الحرة للساح لمهنة مُهينة كهذه بان تعود للظهور .

(١) بمناسبة اول زيارة للرئيس جمال عبد الناصر للجزائر غداة استقلالها وتكريماً للمدينة البطلة
بور سعيد وتحليداً لذكرى شهدائها الذين سقطوا برصاص متوحشي العصر الحديث في الغرب ،
اطلق بن بلته على حديقة بروسون Bresson اسم مدينة بور سعيد الحالية -المرجع-

اما الكُسالى والمتأنقون فعليهم ان يفعلوا مثلي : أن يشتروا فرشاة
ويمسحوا احذيتهم بانفسهم ...

وفي نطاق حملتنا لنجميل المدينة كوتنا ايضاً مراكز لايواء العجز والشيخوخ.
وقد خصصنا للنساء مركز « لقمة الخبز » وللازواج الطاعنين في السن مركز
سيدي موسى . وعندما تشكلت حكومتي كان يوجد مئات ومئات من الشيوخ
والنساء الذين ينامون بالليل تحت حنايا العاصمة . وفي هذه الآونة كنت
أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل . وقبل ان انام كان من عادتي ان التجول ،
حوالي الساعة الواحدة او الثانية صباحاً ، بالمدينة لشم الهواء . وهناك كنت
ارى من ساحة لاخرى اكواما انسانية جامدة ، ممددة في أسماها . يكاد
الناظر اليها في ظلال الحنايا الباهتة يحسبها امواتاً سقطوا في معركة الحياة .
ومن أمسية لاخرى كان قلبي ينقبض لرؤيتهم يتكاثرون . لقد كانت يوماً
جيلاً وسعيداً بالنسبة لي عندما اعطيت الامر يجمع هؤلاء الفقراء وتوزيعهم على
الملاجئ التي كونها والتي كانت في انتظارهم .

* * *

لقد قمنا بهذه العمليات ونحن نعرف تماماً اننا لم نضع بعد ايدينا على ما
هو جوهري .

وبكل بساطة كانت تتجاوب مع الاشواق العميقة للجماهير الجزائرية، هذه
الجماهير التي بعد ان خرجت من ليل دام قرناً وثلاثين عاماً ، وبمسد اعوام
واعوام ذاقت فيها الاحتقار ضرورياً والواناً ، كانت بحاجة لان تحس وترى

وتمس بالأصابع عناية السلطات الجزائرية بها . وكالطفل الذي استفاق من كابوس والذي يطلب بان يُطمأن ويدلّل ، كذلك الشعب الجزائري كان ينتظر حبا والتفاتا من اول حكومة جزائرية للجزائر .

ولم أحس بهذه الروح بصورة افضل إلا خلال جولاتي . لقد مررت بالسيارة ذات يوم بقرية صغيرة ، وعندما رأيت الفلاحين منكبين على بناء مسجد ، قررت التوقف والنزول اليهم . وفورا عرفوني . فالتفوا حولي . وشرعت أتحدث معهم . وفي هذه الاثناء تقدم مني أحدهم وكان شيخا هرمّا وقال لي :

– يا أحمد ! أخيراً زرقتنا ! ولكنك تأخرت وقتاً طويلاً قبل أن تجيء لتراتنا ! لماذا تأخرت علينا طول هذه المدة ! عندك شهور وأنت رئيس ! وبقينا ننتظر .. وننتظر ! ،
فقلت له :

– يا بابا ، الجزائر كبيرة ، فيها أكثر من ألف قرية كبيرة ، حتى اذا كنت أستطيع ان ازور منها ثلاث قرى كل يوم ، هذا بشرط ان لا أفعل شيئاً آخر إلا الزيارات ، فانه يلزمي أكثر من عام لزيارتها . قل انت بنفسك كم يلزمي من الوقت لزيارة ٢٠٠٠ قرية صغيرة مثل قرينك ؟

فقال الشيخ : – نعم عندك الحق يا احمد .. ولكننا انتظرناك .. وانتظرناك ..

وكانت الجموع المحيطة به تسانده .

رأيت ضرورة العمل بسرعة لأنني كنت أحس نبض الجماهير . وكنت اعمل عند الاقتضاء بوسائل غير تقليدية – او لنقل ببساطة بوسائل ثورية –

ضد التجاوزات . في شهر كانون الثاني وشباط ١٩٦٣ ، في شهر الصيام ، ارتفعت أسعار الفواكه واللحوم ارتفاعاً فاحشاً . وقمت بتحقيق فتبين لي بأن هذا الغلاء الفاحش الرهيب كان من تدبير اشخاص يملكون في الاقتصاد الرأسمالي سلطة تملو سلطة رئيس جمهورية . وبكرهم يستطيعون تقدير الفشل لأكثر الأجهزة الحكومية فعالية : اقصد تجار الجملة بالسوق المركزية .

لقد مرّت الحرب والثورة والاستقلال جميعها على هؤلاء السادة في العاصمة دون ان تترك فيهم اثرأ . وبسبب انهم يزودون المنتجين بالنقود لغرس هذه الخضرة او تلك ، فانهم يصبحون أسياد الموسم الذي غدا سلفاً رهينة لقروضهم . وقد مكنتهم هذا من اللعب بالأسعار على هواهم وهم جالسون أمام تلفوناتهم . انهم يأخذون سماعة الهاتف ويأمرون المنتجين : « اليوم لا تَنزِلوا الطماطم الى السوق » . وتصبح الطماطم نادرة ، فتصعد اسعارها ، حتى تصل الى المستوى المرغوب ، وعندئذ يرفع تجار الجملة من جديد الموانع . ويحصلون على نفس النتيجة بأجراء آخر اكثر بساطة : « الإيداع » ؛ بدلاً من توزيع الخضرة على السوق ، فانهم يخزنونها . وذات يوم نزلت بنفسي الى السوق واستدعيتهم لأقول لهم :

— يقال ان البصل لم يعد له وجود في السوق . ولكني منذ قليل رأيت منه كمية في مخازنكم .

فأجابوني ، وابتسامة لياقة على الشفاه :

— سيدي الرئيس اننا لا نستطيع ان نمد أيدينا اليها ، انها في الإيداع .

قلت : الإيداع ؟ وماذا يعني هذا ؟

— هذا يعني سيدي الرئيس ان البضاعة تمّ بيعها .

وفوراً لوّحوا لي بقائمات مستوفية الشروط وموقعة من أناس يحترفون
اعارة اسمائهم .

فقلت : « حسناً جداً ، إنكم في حدود القانون » .

وذهبت . وكانوا يشاهدونني اذهب وهم يبتسمون .

ولكن في اليوم التالي ، اختفى ابتسامهم عندما رأوني أعود على رأس
ألفي طفل . ودلت الاطفال على الايداع الشهير وقلت لهم :

— تقدموا اليه ، اليوم كلّ هذا بالبحان . ان من لا يميّن عائلته هذا اليوم
لا يستطيع ان يميّن ابداً » .

وانطلق الاطفال افواجا الى المخازن ، وفي كل مكان مروّا منه لم يدعوا
بصلة واحدة ... وعندما قفلت راجعا قلت لهؤلاء السادة :

— سأعود غداً على رأس اربعة آلاف طفل .

ولكن ذلك لم يعد ضرورياً . لانهم أدركوا ان لعبة الايداع النبيلة لم
تعد تروج في الجزائر الجديدة .

كما كانت تصرفات تجار الجملة في الخضروات كانت ايضاً تصرفات بائعي
اللحوم بالجملة . ولكن هؤلاء كانوا اشد مراساً . ففشلت معهم كل الوسائل
إلا وسيلة واحدة هي القوة . لقد كان علينا ان نضعهم جميعاً في السجن .
نعم . اقول جميعاً . لانهم اقوياء بملياراتهم التي حصلوا عليها من الحرام ،
ولانهم يتمتعون بمساندات ومشاركات لا حصر لها ، ولانهم حتى ذلك
الوقت كانوا متأكدين من ان يد القانون لا تمتد اليهم .

وقد دهش تجار اللحوم بالجملة كيف أعاملهم على هذا النحو . وزارني احد

زعماء الوطنية ^(١) « المعتدلة » ، وكان مغتاضاً فقال لي :

- كيف تضع هدروق في السجن ؟ انه رجل طيب كثيراً ، وأكثر من ذلك انه صديقي ...

- نعم . كنت اعرف بالتأكيد ان هدروق كان صديقه و « أكثر من ذلك » كان صديقاً كريماً لانه قدم اليه الفيلا التي كانت يسكن فيها .. وقد صرفت بأدب مخاطبي وظل هدروق في السجن ...

* * *

منذ زمان طويل وانا مهموم بمصير الفلاحين . اثناء شهر الصيام كنت أجوب سهل المتيجة ، وكان قلبي ينقبض من رؤية المساكن البائسة من القش والطين قائمة بجانب فيلات رائعة يسكنها الكولون . وقد توقفت أمام احد هذه الاكواخ ولحمت رجلاً متقدماً في السن فقلت له :

- كيف حالك يا أبي ؟

عرفني فقام وأمسكني من يدي وقال :

- كيف تكون حالي حسنة بينا الكولون (وانطلق يشتمه) 'يسكننا انا وعائلتي في مسكن لا يسكن فيه حتى مواشيه ! تعال يا ابني تعال أريك الدار التي أعطاني اياها .

وفي الواقع كانت شيئاً رهيباً : غرفة صغيرة وضيقة ، وسقفها منقوب . وآثار قطرات المطر مرتسمة على طول الجدار .

وقال لي الرجل :

(١) ربما كان هذا الزعيم هو فرحات عباس . - المترجم -

— مند اربعين عاماً وأنا أسكن هنا . كان عندي سبعة اطفال : ماتوا
كلهم بمرض السل . وهذا هو الثامن .

وفي زاوية من الغرفة كانت زوجته جالسة على الأرض في ذراعيها طفل
هزيل . خرجت من الغرفة مزلزل الكيان وقلت له :

— اين هو معلمك ؟

— انه في فرنسا .

-- وأين هو نائبه ؟

— في بوفاريك .

— اصعد في السيارة معي فسأحدث معه في الموضوع
وفي بوفاريك على بعد ١٧ كلم من المكان وجدت النائب جالساً في المقهى
يتناول مقدمات الأكل مع الكحول وفوراً اخرجته وقلت له :

— استمعوا الي ! لن اعطيكم درساً في الاخلاق . لان الاخلاق معكم لا
تجدي نفعا . ولكني سأقول لكم ما يلي : « اذا لم يُعطَ هذا الشيخ مسكناً
افضل في بحر شهرين فاني سأشتغل بكم » .
ثم أدت عقبي ، وأعدت الشيخ الى منزله .

هذه الواقعة جعلتني المس لمس اليد الوضعية الرهيبة والغريبة التي كانت،
تسود في الجزائر في تلك اللحظة : ان السلطة السياسية كانت بايدي
الجزائريين ؛ ولكن كل السلطة الاقتصادية — الارض نفسها — كانت ما زالت
بايدي الاوروبيين . كان هؤلاء مازالوا محتفظين بمزارعهم العظيمة يواصلون
كما كانوا في الماضي استغلال الفلاح . لقد كان واضحاً ان ابسط مبادئ العدل
لا تقر بمثل هذا الوضع ، وأن كلمتي « الاستقلال » و « الثورة » لن يكون

لها اي مضمون ، وأن منهاج طرابلس المرحلي يبقى حبراً على ورق ، اذا ظلت الارض الجزائرية ملكاً لكبار الملاكين العقاريين فرنسيين او جزائريين .

في مارس ١٩٦٣ أصدرت حكومتي قرارات مارس التي أمت الجزء الاعظم من الملكيات العقارية . كنا نخشى ان تكون هذه الملكيات هدفاً لتخريب الملاك المجردين منها - اذ عند إبرام اتفاقيات افيان عمد بعض الكولون ، قبل رحيلهم ، الى حرق محاصيلهم ، وابداء مدخراتهم ، وتخريب آلاتهم - ولهذا قررنا ان نستولي على الأرض قبل اصدار القانون . وفي شروط تنظيم وسريّة رائعة طوق جيش التحرير الوطني المزارع الكبرى واحتلها وأنذر مالكيها بمغادرتها . وهكذا أمت « لاتراب »^(١) الشهيرة التي كانت يملكها بورجو.. والاملاك الاخرى التي كانت في تصرف جرمان.. افيرسانك.. غروشان ... فور ..

لقد انفجرت الافراح في طول البلاد وعرضها. ويجب ان اقول اني لم أشعر أبداً بأني سعيد كما في هذه المرة .. إن الارض تعود للذين يكدحون فيها . والجزائر تمشي خطوة حاسمة في طريق الاشتراكية . كانت هناك ردود فعل من طرف الحكومة الفرنسية ، وكانت جد عنيفة ، ولكنها لم تصل الى حد اندلاع أزمة حقيقية بين الدولتين .

اما بورجو - الذي كان اسمه يبدو للشعب الجزائري كرمز للاستعمار

(١) من اعظم واغنى المزارع في الجزائر . كانت تسمى La-Trappe وبعد التأميم ودجها في قطاع التسيير الذاتي أطلق عليها اسم « ضيعة عمار بوشاوية » وهو اسم احد عمالها الذي استشهد في الثورة . ولا تزال عائلته تعمل فيها حتى الآن . - المترجم -

الفرنسي - فقد قابل - كما قيل لي - « بالاندهاش العظيم » الاجراء الذي أصابه ، وفوراً ارتحل الى فرنسا حيث كان ينتظره ، فيما اعتقد ، رفاه عتيده ، وبعد رحيله زرت « لاتراب » فوجدتها - بما في ذلك الشعار^(١) الشهير - جد مدهشة وجد فريدة ، فقررت ان لا يغير فيها عن مكانه لا أثاث ، ولا كتاب ، ولا صورة ، ونيقي هي الاحتفاظ بقصر بورجو على الحالة التي تركه عليها ، وجعله متحفاً لنظهر به لأجيال المستقبل في الجزائر كيف كان يعيش كبار الاقطاعيين الذين كنا عبيداً لديهم .

* * *

لم نؤمن كل شيء ، وكل يوم كنت أتلقي مئات الرسائل التي تلفت انتباهي للزراع التي نسيناها . وذات يوم بينا كنت ماراً غير بعيد من مغنية ، بقرية تدعى عين عيتة ، اذكر ان سيارتي ما كادت تنجح في التخلص من الجموع ، حتى أبصرت رجلاً في الأربعين يركض بجانب السيارة ويلوح بورقة صارخاً . كانت سرعة ركضه جنونية حتى كاد يدرك السيارة . واثناء ركضه لم ينفك يظهر لي الورقة ويصرخ بشيء لم أتبيّنهُ . طلبت الى السائق ان يكتبَ السيارة قليلاً ، وأنزلت زجاج النافذة ، واستفسرته بحركة ودّية من يدي ، واخيراً نجحت في سماع ما كان يقول . لقد كانت يصرخ بكل قواه : « غروسي ! غروسي ! » Grosset . Grosset « ولكني لم افهم شيئاً جديداً ، ولم يستطيع احد ممن كانوا حولي ان يشرح لي .

وفي المساء طرحت السؤال على والي المنطقة ، فأخذ في الضحك :
- إفون غروسي ، احد كبار الملاك العقاريين بالقرية . وصاحبك كان

(١) « بالسيف والصليب والمراث » شعار الاقطاعية الاستعمارية . - روبير ميرل -

يريد ان يقول لك بأن مزرعته لم تؤمّم ؛ له .

وسألته :

- هل هي مزرعة كبيرة ؟

- اربعمائة هكتار من أجود الارض .

قلت له :

- إسمع انها فضيحة ، أمّمها ابتداء من الغد .

ثم فكرت في الذي كان يركض ورائي في الصباح ، وانشرحت أساري
عندما فكرت في الفرحة التي سيحسّ بها من قراري : ان مئة متر من الركض
لم تلق يوماً جزاءً أفضل . .

اذكر عرضاً ، ان غروسي كان مُلاعبي في تلمسان . ولعبت في كرة
القدم ضده ، واحتفظت له كانسان بذكرى ممتازة . ولكنه كان طبيعياً ان
يلقى نفس المصير المشترك . لم اكن استطيع ان استثني مالكا عقارياً كبيراً
اوروبياً كان او جزائرياً .

ذلك انه كان ثمة خطر عظيم : ان يحلّ الجزائريون الاكثر غنى محل الملاك
الفرنسيين ويشكلوا بعدهم بورجوازية أهلية تبقي الجماهير الكادحة غارقة في بؤسها

بعد توقيع اتفاقيات افيان انتقلت بعض الملكيات ، سواء بالمدن او
بالارياف ، من ايدي الاوروبيين الى ايدي رجال المال الجزائريين الذين
اشتروها بثمن بخس وانطلقوا يستغلونها بشراهة كانت مساوية عى الأقل
لشراهة أسلافهم . وفي الاشهر التالية لقررات مارس اضطرت حكومتي لا
فقط الى تأميم المزارع بل ايضاً الفنادق ، والمطاعم ، والمقاهي^(١) ، والدور

(١) تأميم المؤسسات التجارية الكبيرة التي نهافت على قملها ، رغم تحذير جيش التحرير ←

التجارية التي انتقلت ، كيتها حديثاً للجزائريين .

هذه الاستثمارات والمؤسسات الاقتصادية التي أمنها ، لم نفكر في لحظة ما ان نكبل للدولة امر تسييرها ، كما لو كانت املاك دولة . بل ان العمال انفسهم • الذين يجب ان ينتخبوا كوادرم ويسيروها بأنفسهم . وهكذا تكف الديمقراطية عن ان تكون في ساحات الخطابة مجرد لعب سياسي صوري يحرك خيوطه طواغيت المال ؛ وتُنصَّب الديمقراطية في المكان الجدير بها : في القاعدة ، على امكنة العمل ، وفي العلاقات الملموسة بين الشغل والانتاج ، وفي التوزيع العادل للارباح ، وعندئذ فالدولة لا تتدخل في عملية الانتاج الا بصفة المستشار او المنظم او المفوض .

. Commanditaire

حتى لو كان التسيير الذاتي قد وجد في فرنسا ، وهي بلد بلغ درجة عاليه من التطور الاقتصادي ، فانه كان من الممكن ان يطرح مشاكل ، لان التجربة تبرهن على ان الانتقال من الاقتصاد الرأسمالي الى الاقتصاد الاشتراكي لا يتم بسهولة . وفي بلد متخلف كالجزائر فذلك يطرح مشاكل اكثر

« الوطني ، البورجوازية الجزائرية كان اجراءاً منطقياً وثورياً . بالاخص وهذا التوارث تم احياناً عن طريق عقود صورية او صفقات مشبوهة . الا انه كان من الخطأ تأميم بعض المؤسسات التجارية الصغيرة التي بالاضافة الى الدعاية المحبوكه من البورجوازية الكبيرة التي قرعت لمجاهير البورجوازية الصغيرة ناقوس « الخطر » الاشتراكي . وقد فطنت السلطة الثورية الى هذا الخطأ . وفوراً طلب بن بله من وزير الداخلية دراسة الموضوع ورد الاملاك الصغيرة المؤممة ، خطأ ، الى اصحابها . ولكن هذا الاخير ظل اكثر من عمام يتلدد ويماطل . ولم تعد بعض المتاجر الصغيرة الى اربابها الا بعد ان استقال . ومن الجدير بالذكر ان وزير الداخلية الحالي - وهو نفسه بالامس - كان في طليعة المبادرين الى انتزاع المزارع الواسعة من عمال التسيير الذاتي وردها ، ورد الاعتبار معها ، الى الاقطاعيين الحقنة .

- المترجم -

عُسرًا ، لان عدم الكفاية الكيفية والكمية للكوادر تصل الى حدود المأساة والروح الفردية وحتى الفوضوية شديدة الانتشار ، والمواقف «الاقطاعية» كثيرا ما يتبناها بسهولة رؤساء المؤسسات الاقتصادية حتى عندما يكونون منتخبين . لقد حصلت اخطاء ، وتجاوزات ، ومحاولات لتلمس الطريق ، وفي بعض الحالات ، اخفاقات خطيرة ، وقد لزمنا على ضوء التجارب ان ننقح طريقتنا في النظرة الى الاشياء وان نصحح مفاهيمنا .

ولكن في نهاية عام من ممارسة التسيير الذاتي ، ورغم جدل الصحافة الغربية التي كانت تكتسب تجربتنا بقصد مُبَيَّت هو المناداة بافلاسها عند لقاء اول صعوبة — فان الحصيلة كانت إيجابية . لقد طرح علينا مشكلة ماذا يجب ان نصنع بارباح المؤسسات المسيرة ذاتيا ؟ اصداقنا في الاتحاد العام للعمال الجزائريين كانوا يرون ان هذه الارباح كان يجب ان تدفع لصندوق خاص مرصود للقضاء على البطالة (١) .

(١) عندما اثرت قضية اعطاء او عدم اعطاء عمال القطاع الاشتراكي والصناعي نصيبهم من الارباح ، التي شغلت الصحافة الوطنية والرأي العام اكثر من ثلاثة شهور ؛ كنت وقتها من المشرفين على « الثورة والعمل » لسان الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، وهذه الصفة كنت اعرف ان قيادة الاتحاد - وهي بيروقراطية متعفنة لم تكن تتمتع باي دعم من قاعدة الطبقة الشغيلة الجزائرية - رفعت هذا الشعار الديماغوجي : حرمان الشغيلة والعمال الزراعيين من الحافز المادي بذريعة ضرورة « التقشف » والزهد لمقاصد أخرى غير التي كانت تعلن عنها ، وفي الواقع كانت كل الادلة تتضافر على ان هذه البادرة الماكرة لم تكن صادرة منها ، بل اوحى لها بها دوائر رجعية جزائرية وربما اجنبية ايضا لقصد معاداة الثورة . وما زلت اذكر ان الذي صاغ بلاغ قيادة الاتحاد الذي تهجم بمبارات وقحة وحاقدة على اليسار الجزائري في شخص محمد حربي - مدير الاسبوعية الثورة الافريقية La Revolution Africaine التي كانت مع الجزائر الجمهورية Alger républicain تبني وجهة النظر الاخرى : الابقاء على الحافز المادي كعامل هام

ولكنني لم اجد ، لا على صعيد الانصاف ولا على صعيد الانسانية ، هذا الحل سعيداً وتوصلت الى اقناع اصدقائنا بذلك . لأن الفلاح الذي يقبض من عمله في المزرعة ٧٥٠ فرنكاً قديمة يومياً ، يدفع منها جزءاً ، وجزءاً هاماً ، (٢٣ ٪) لصندوق التضامن الوطني . فكيف ، والحالة هذه ، نطلب منه عندما تضبط الحصيله السنوية مساعدة مالية اضافية لا نطلبها مثلاً من الموظف ؟ ومن جهة أخرى كان يبدو لي ضرورياً تماماً ان يشعر الفلاح انه لم يعد ذلك الاجير الذي كان ، بل هو الآن منتج ، يمس بيديه ارتفاع منزلته الاجتماعية بقبضه ، في شكل قسط سنوي ، جزءاً من الارباح التي حققتها وحدته الانتاجية .

لا ازعم ان التسيير الذاتي كما هو مطبق حالياً في الجزائر لم يعد في حاجة الى مزيد من الكمال . وانما يجب التمييز بين النقد الذي مصدره حسن النية والذي يكتب او يقال بقصد تحسنه ، والنقد الهدام الحاقد ، والمتشائم بغير

→ لتحسين حياة العمال وتمحيصهم لكسب معركة الانتاج- كان شخصاً ليست له اي صفة نقابية ، وكان بوضعه المادي والمرتبي والفكري غريباً عن الطبقة الشغيلة بل وعدوا لها . واكثر من هذا كان عضواً فعالاً في حزب رجعي معاد للثورة وعميل : جمعية القيم الاسلامية ، التي تسترشد بتوجيهات سعيد رمضان رئيس المركز الاسلامي مخيف .

وعرضاً أذكر ان قيادة الاتحاد التي كانت قوصي العمال بالزهد والحرمان ، كانت هي - وكنا نرى ذلك يومياً - وكما اظهره المؤتمر الوطني الثاني فيما بعد ، تبذر اموال ومكاسب الاتحاد ذات اليمين وذات الشمال .

وكانت الرجعية تهدف ، فيما تهدف اليه ، من حرمان المنتجين من نصيبهم في الارباح ، الى تفتير حماسهم وتشكيكهم بجدوى التسيير الذاتي وقدرة الحل الاشتراكي على التحسين النسبي السريع لوضعهم المادي الاسوأ . كما كانت تريد من وراء عدم اعادة المكاسب الصغيرة التي أمت خطأ تنفير جماهير بورجوازية الصغيرة من الثورة الاشتراكية ، وتقديمها للمستفيدين الاساسيين منها ، وحلفائهم : عمال المدن والارياف وجماهير صفار الكسبة كذئير تفكير ونهب . - المترجم -

استثناء الذي نسمعه من بعض الأوساط الجزائرية، وهو يستهدف ، من خلال النواقص والتجاوزات ، نفس مبدأ تسيير مكاسب الأمة من طرف الشعب .

في الواقع يبدو واضحاً ان البورجوازية الجزائرية ترى في التسيير الذاتي « ربحاً ضاع من يديها » ونهاية للمنظورات اللذيذة التي داعبتها بكل وقاحة إثر رحيل الفرنسيين ، بعد ان كسب الشعب ، والشعب وحده ، حرب الاستقلال فان الأمر بالنسبة لبورجوازية هذه البلاد لم يكن شيئاً آخر غير انتعال أحذية الاوروبيين والانفراد بإرث ثرواتهم ، وترك الجماهير في بؤسها .

لقد احبطت هذه النيات وسأبقى في المستقبل على حذر ، ولم يغرب عني ان تحقير التسيير الذاتي لا يكشف شيئاً آخر غير طموح الأغنياء الجزائريين المكتوم للعودة لنظام الاقتصاد الرأسمالي وارباحه الظالمة . واذا وصلوا لتحقيق هذا الطموح فسيكون ذلك نهاية الاشتراكية في الجزائر وبالنتيجة نهاية استقلال الأمة ، وايضاً نهاية الآمال التي عقدها الشعب المتألم على الثورة لتحسين مصيره .

ان من يلحق الاضرار بالتسيير الذاتي - مباشرة او من وراء ستار ، علناً او خفية - انما ينتهك حقوق الجماهير الاساسية ، ويمكر بها ويخدعها ويطعن بها بالخناجر . اما انا فما بقيت على قيد الحياة وما بقيت عندي بقية قوة فلن اترك شخصاً في الجزائر يمس أثمن مكاسب الثورة : التسيير الذاتي .

الفهرس

صفحة	
٤	اهداء
٥	مقدمة
١٧	مدخل
٢٩	الفصل الاول : مغنية
٤٥	الفصل الثاني : حملة ايطاليا
٦٥	الفصل الثالث : العودة الى الجزائر
٨٧	الفصل الرابع : الثورة
١١١	الفصل الخامس : الأسر
١٣١	الفصل السادس : غداة الاستقلال
١٥٧	الفصل السابع : المشاكل الاولى

دراسات من منشورات دار الآداب

جمال عبد الناصر □ جاك دومال وماري لوروا

من حصار القالوجه حتى الاستقالة المستحيلة

الفكر العربي في معركة النهضة □

د. انور عبد الملك

ناظم حكمت ، السجن ، المرأة ، الحياة □

حنا مينه

ناظم حكمت ثائراً □

التراث الفلسطيني والطبقات □

علي الحليلي

الطريق الى الحتمية الاخرى □

د. رضوى عاشور

(دراسة في اعمال غسان كنفاني)

الوجه والقناع في مسرحنا العربي □

محمود امين العالم

التمن : ١٤ ل ١ او ما يعادلها